دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب ـ جامعة دمشق

السنة السابعة عشر/ العددان / ٥٥ ـ ٥٦ / آذار ـ حزيران/ ١٩٩٦

الاشتراكات	للافراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(١٠٠) ل.س.
في الاقطار العربية	(٢٠) دولار امريكي	(٤٠) دولار امريكي	
في البلاد الاجنبية	(٣٠) دولار امريكي	(٦٠) دولار امريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب- مجلة دراسات تاريخية- جامعة دمشق.
المكاتب: جامعة دمشق- هاتف /٢١٢٤٤٦١/

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسـات تاريخية هي جـزء من مشروع كتابـة تاريخ العرب، وخطـوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعهـا الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريـخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظـوري الفهم الحضـاري للتاريـخ والتقيد بأسلوب البحـث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميـدان البحث في التاريخ العربي، وتسليـط الضوء على التيارات العامة التـي حركت تاريـخ الامة العربية واعطتـه خط مساره الخاص، وايضاح مـالفه الغموض، وتصحيح مـاشوه وكشف الزيـف ان وقع، وكل مايمكـن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلـة ترحـب بكل قلـم يشارك في اغنـاء فكـرتها وبكل مقترحـا ورأي يساعـد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومـايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

آ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.

ب – ان لايكون البحث منشورا من قبل.

جـ – ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.

د – تعرض البحـوث، في حال قبـولها مبدئيـا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتهـا للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعـديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولاتنشر المجلة قوائم المصـادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ – في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كـاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كـان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحته خـط، عد د المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجـد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب – في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم البـاحث كاملا، عنوان الـدراسة كاملا بين قـوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحرريـن، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

جـ – في المجلات:

اسم البـاحث كامـلا، عنوان البحث بين قوسين مـزدوجين « » اسم المجلة كـاملا وتحته خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشـار به الى المجلة في المرات التالية:

د – في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كـاملا، عنوان المخطوط كامـلا، الجهة التي تحتفظ به، تـاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الـورقة من الاشـارة الى وجهها (آ) وظهرهـا (ب). ثم ذكـر مايشـار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتـب الاسماء الاجنبيـة بـالعـربيـة والـلاتينيـة بين قـوسين ( )، ويشـار الى الملاحظات الهامشيـة بنجمة *. وتـرقم الحواشي بارقـام تتسلسل مـن اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح البـاحث نسخـة من العدد الـذي نشر فيه بحثه والاعـداد الصادر خـلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

المظاهر السياسية والحضارية
للدولة الرستمية في المغرب
(١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م)

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب

١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م

اعداد
الدكتور / صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بقسم التاريخ —كلية الآداب
جامعة اليرموك
اربد—الأردن

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب (١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م)

الواقع أن ظروف المغرب كانت مؤاتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة ١٢١هـ =٧٣٩م، بعد تفاقم المشاكل في البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي كان رغم حسن ارادته وخبرته في تسيير الأمور إلا أن هذه الصفات لم تغن شيئاً أمام النزاع القبلي العربي، الأمر الذ أدى إلى تداعي نفوذ الخلافة الأموية في هذه البلاد خاصة بعد موت الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، ولعل أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب، تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري على أفريقية سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م. وارغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها وقبول الخليفة مروان بن محمد مضطراً بشرعية ولايته سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م(١).

وكان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم بتكوين دولة لهم بسبب ضعفهم في التنظيم السياسي، وقيامهم بالثورات المستمرة ضد بني أمية دون تنظيم مسبق، جعلهم يستفيدون من أخطائهم السابقة ويلجأون إلى التنظيم والسرية في الدعوة لتكوين الدولة.

ونجحت دعوتهم بتكوين الدولة الرستمية التي تبنت آراء المذهب الأباضي الذي انفرد عن غيره من المذاهب الاسلامية بأن الخلافة ليست في قريش، ولا في قبيل من قبائل العرب، ولافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأن الجميع فيها سواء، وأن العمل بأوامر الدين كجزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد وحده بل الاخلاص للعقيدة، من هنا تناسبت هذه الآراء مع طبيعة المغاربة ومطالبهم، خاصة الشرط القائم على الجنس، فقد أقبل المغاربة على الأخذ بها أكثر من غيرها، وقام دعاة الأباضية في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم، حتى عمت الدعوةسائر البلاد المغربية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. واحتاج المذهب إلى رجال يقومون بتعريف المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده. ولم يستطع دعاة المذهب الأول كعكرمة مولى ابن عباس، وسلمة بن سعيد، وابن مفيطر أن يقوموا بهذا الدور، فاختار المغاربة بعض الرجال منهم وأوفدهم في بعثة علمية إلى البصرة للدراسة والتعليم والتعمق في أصول المذهب وفروعه، واستمرت مهمتهم خمس سنين عادوا بعدها إلى المغرب، وسموا بـ(حملة العلم)(٢)، ثم قاموا بتدريس ماتعلموه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى، وفي تلك الحلقات تلقى أتباع المذهب عل الأصول والفروع، والسير، والتوحيد،. والشريعة، وآراء الفرق الاسلامية الأخرى، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات(٣)، فكانت حلقاتهم بمثابة مدارس للعلوم النقلية والعقلية ومراكز للتعريب ونشر الحضارة العربية الاسلامية.

ولم تنقطع الصلة الثقافية بين أباضية المشرق —عُمان والبصرة— وأباضية المغرب، فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم ترد إلى المغرب بشكل دائم(٤). كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء(٥)، والاطلاع على أحوال الأباضية، وقد أشار أبو زكريا إلى ذلك، بقوله«...وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا(٦) من أهل المشرق، أقبل من عُمان يريد زيارة أهل الدعوة...»(٧). إلى جانب ارسال البعثات العلمية من أهل المذهب إلى المشرق للأخذ عن أعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز(٨).

ولاشك أن ذلك الاتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وساعد على اظهار كثير من أعلام المغرب في العلوم الدينية والدنيوية مثل: الشيخ المهدي النفوسي الذي برع في علم الكلام، وابن يانس الذي برع في علم التفسير، والشيخان الفقيهان أبو الحسن الابدلائي، وعبد العزيز بن الأوز(٩) اللذان برعا في علم الفقه وغيرهم الكثير ممن أثروا بتآليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية في بلاد المغرب، الأمر الذي ساعد على انتشار المذهب ورسوخه في العديد من المناطق المغربية، مثل: الجزائر ووهران، وجبال الأوراس، وجنوب باغاية، والنصف الجنوبي من أفريقية— تونس، ومنطقة طرابلس الممتدة من خليج سرت الواقع على البحر المتوسط إلى الصحراء الكبرى باستثناء مدينة طرابلس وساحل البحر اللتان كانتا تابعتان للأغالبة من قبل، ونظراً لقربهما من مناطقهم، كانتانقطتي تماس بينهما. وبقي هذا المذهب في هذه المناطق إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.

يقول البكري بهذا الخصوص:«وجبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم أباضية»(١٠). وإلى اليوم مازالت فئات منهم في ميزات—جنوب الجزائر— وفي جربه بتونس، وفي ليبية.

ولما تكونت دولتهم المسماة بالدولة الرستمية(١١)، تبنت المذهب الأباضي، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها، وأصبحت حدودها السياسية بين إمارة الأغالبة شرقاً والأدارسة غرباً، وامتدت جنوباً لتشمل ورقلة ووادي ريغ والجريد، وجبال دمر إلى طرابلس. وجبل نفوسة، وأصبحت على مقربة من الحدود المصرية.

ولقب حكامها بالأئمة إلى جانب لقب أمير المؤمنين(١٢)، وكما ذكرنا كان نظام اختيار الحكام قائم على مبدأ الشورى، بدليل أن الإمام عبد الرحمن بن رستم عندما أدركته الوفاة، قام بتعيين سبعة رجال من أهل الشورى—ممن عرفوا بالتقوى والورع— لاختيار امام منهم، وهم: ابنه عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة، ويزيد بن فندين اليغرني، وعمران بن مسعود الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سرحان، وبجعل ابنه ممن يقع عليهم الاختيار، أحدث احتجاجاً من قبل مسعود الأندلسي، ويزيدبن فندين، وخاصة الأخير الذي رأى في هذا الاسلوب تغليب فكرة التعيين بالوراثة على فكرة التعيين بالانتخاب(١٣).

ولك ينال الإمام التأييد لابنه مـن فقهاء وزعماء الأباضية(١٤) في المشرق أرسل وفداً إليهم يستفتيهم بما حصل، فجاء الافتاء لما فعل، ولكـن ابن فندين لم يقنع، فلجأ الإمام إلى محاصرته والتقليل من شأنـه، فعهد إلى الاصهار مع أحد شيوخ لواته الكبـار وتزوج بابنة أمير هوارة أحد بطونها فانحازت لواته له(١٥).

ونال البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، وتبعتها البيعـة العامة من أبناء الرعية وبهذا نال الامامة حسب الأسلوب المتبع في الدول الاسلامية ونودي به إماماً للدولة(١٦) سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م.

وجرت العادة أن يكـون للامام مجلسٌ يتكـون من العلماء والعقلاء المتقين المخلصين، والذين لهم دراية بـالأمور وهم يعدون له ظهيراً، ويقوم الخطبـاء بترديد البيعة للملأ على المنابر قصد اشهارها، فالخطيب أبو الربيع كان يعلن دائماً عن بيعة الإمام عبد الوهاب من على منبر المسجد في الأيـام الأولى من توليته بقـوله:(الامام عبـد الوهاب أمامنـا، وثقتنا، وإمام المسلمين أجمعين، فأنا براء ممن خالفه وأنكر عليه شيئاً غير حق)(١٧).

ويعلن الإمام عنـد توليته عن منهـاجه السياسي، ويوجـه كتاباً للأمـة يتضمن النصح والارشاد، واتباع أوامـر الله، من هؤلاء؛ الامام أفلح بـن عبد الوهاب الـذي وجه لعماله كتاباً ليقرأوه على المنابـر للرعية بعد أن بدأها بالبسملة والصـلاة على النبي قال: من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هـذا من المسلمين. أما بعد، فالحمد لله في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطا... إلى أن يقول: «وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طـريق الحق وحملوكم على المنهاج، ففي أتبـاعهم النجاة وفي خلافهم الهلكة؛ وكـل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفـر...» إلى أن يقول:«إن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بـالعدل في عباده وبلاده ولاتأخذكم في الله لـومة لائم... فاتقوا الله حق تقـاته وتـواصوا بالبر والتقـوى ومروا بالمعـروف المفترض عليكم وانهوا عـن المنكر الذي قـد نهيتم... فعليكـم معشر المسلمين باتبـاع الآثار والعمـل بما عمل بـه أسلافكـم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي اتبـاعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي... وقـد بالغـت إليكم في النصحيـة، وشرحت لكـم الموعظـة ورضيت لكـم بما رضيت بـه لنفسي، ونهيتكم عما انهى عنـه نفسي نصيحة لله واجتهاداً في طلب رضـائه، والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

والكتاب طويل، اقتصرت على فقرات منه لعدم اتساعه في هذا المجال(١٨).

كما يصدر الامـام بعد تـوليته السلطـة قراراتـه المسماة بالبربـرية (البيـورلدي)، ومـن ضمنها ارسال الوفـود الدبلوماسية إلى الأمراء والملـوك الذين تربطهم به عـلاقات مودة، فقد أرسل الإمام أبو بكـر بن أفلح بن الامام عبد الوهاب، وفـداً إلى ملك مملكة صوصو احدى الممالك السودانية، برئاسة محمد بن عرفـة أحد أعيان مدينة تيهرت، ومعه هدية منه إلى الملك، وكان حسن الهيئـة والخلقة، فأعجب به، وعبر عن اعجابـه بلهجته قائلاً:«أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال»(١٩).

ونهجوا كغيرهم من حكام المسلمين على تدريب ولاة العهد، فقد عين الامام عبد الوهاب حفيده (ميمون) على بيت المال، وأوكل إليه الجبايات رغبة منه في تولي الامامة من بعده، لكن رغبته لم تتحقق، أما الامام أبو اليقظان فقد قام هو الآخر بتدريب ولده المكنى بأبي حاتم على أمور الدولة، وعهد إليه مناصب متعددة، مما لفت نظر العامة إليه الذين حملوه على الأعناق يوم العيد ذاهبين به إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة العيد لتأخر والده عنها، ولما علم والده بالخبر، قال لأمه واسمها غزال:«احذري ياغزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطاناً(٢٠). ولعل اسمها كان تشبهاً بغزالة أم شبيب بن يزيد الشيباني التي كانت من أبرز نساء المذهب في المشرق(٢١).

وبالمناسبةفقد شاركت المرأة الأباضية الرجل في فنون السياسة والحرب، وأسهمت في التنظيم والدعوة، وبرزت في ميدان المعرفة، أمثال العجوز(وقاية) المعروفة بزهدها وسعة علمها وحسن آرائها، فقد استشارها الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في الولاية المعروضة عليه من الإمام عبد الرحمن على جبل نفوسة(٢٢) فشجعته على قبولها(٢٣).

وتعددت العناصر المكونة للمجتمع الأباضي، الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ سياسة التوازن بينها خوفاً من الفتنة، ولكن عندما يشعرون بالخوف على أنفسهم أو مصالحهم يقومون بضرب العناصر بعضها ببعض، إلا أن الغالب على تصرفاتهم، حل المشاكل بالطرق السلمية، وعدم التعرض إلى سفك الدماء.

فقد عقد الامام عبد الوهاب مع الوالي المتمرد خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى اتفاقاً تم بموجبه اقتسام ولاية نفوسة بينه وبين واليه أبو عبيده عبد الحمد الجناوي، كما أننا نلمس من تصرفات الأئمة الأول الغيرة على الدين وتطبيق أحكام الشريعة في إماراتهم.

ونلمس أيضاً تطوراً في مظاهر البلاط الرستمي، عما كان عليه الحال من الزهد والتقشف أيام الأمير عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة الرستميين الذي لم يحو بيته—يومذاك— إلا على حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في فناء داره، بينما الأئمة الذين جاءوا من بعده، كانت حياتهم شبيهة بحياة حكام المشرق، وهذه شأن كل الدول. فقد امتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي (تسلونت) خارج تيهرت، واقتنوا الجواري والغلمان والعبيد والحشم، وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن(تماليت) خارج المدينة(٢٤)، لئلا يتعرضوا إلى النقد والتشهير من السكان المزدحمين في المدينة.

وأصبحوا يخرجون في مواكب خاصة يحيط بهم فرسان أعدوا لهذا الغرض، حاملين الأعلام الذين كان من أبرزها علم كبير يسمي(البند)(٢٥) ولم يشر المؤرخون إلى لون الأعلام ولا إلى شعاراتها، ويظن أنها بيضاء، لأن اللون الأبيض محبب لدى المسلمين عامة

والمغاربة والأندلسيين خاصة، إضافة إلى رغبتهم في مخالفة شعار العباسيين الممثل بالسواد، ويبدو أن هذه الأعلام كتب عليها آيات قرآنية تتماشى مع فحوى المذهب، وقد عثر في وادي ميزاب بجنوب الجزائر على رايات قديمة محفوظة في المساجد بيضاء اللون مكتوب عليها آيات قرآنية قريبة الشبه بالرايات الرستمية.

وكان لهم مواكب للخروج وللصيد في أوقات فراغهم، وبلغ تأثرهم بحكام المشرق أن لبسوا الثياب المزركشة والحلي القشيبة ووضعوا على رؤوسهم مايسمى بـ(الطرطور)(٢٦).

واتخذ الامام أبو اليقظان سرادقاً على طريقة خلفاء بغداد تأثراً بهم بسبب عيشه مدة طويلة في حاضرتهم—بغداد— أثناء اعتقاله. أما عن الولائم والحفلات، فقد أقاموا الأسمطة—الجفان— لاطعام الفقراء أيام الأعياد والمناسبات الهامة. فكانت تقام الحفلات التي يحضرها وفود من كافة أنحاء الدولة، وكان عمال الإمام ورؤساء القبائل والعشائر ينزلون في (دار الضيافة) ثم ينصرفون إلى عمالاتهم ومضاربهم بعد أن يأخذوا نصيبهم من الأرزاق والهدايا والألطاف التي توزع عليهم في هذه المناسبات(٢٧).

وارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات مع جيرانها اتسمت بالمد والجزر والود والبغض حسبما تمليه الظروف وخاصة السياسية منها على المنطقة كلها، ونظراً لقرب حدودها من دولة الأغالبة، والاختلاف في المذاهب الدينية وفي الولاء السياسي، كان من البداهة أن تحدث بينهم المشاحنات(٢٨)، والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على حاضرة الرستميين(تيهرت) لبعدها عن افريقية مسافة قدرت مسيرة شهر على ظهور الإبل(٢٩)؛ وإنما يعود إلى مراكز استقرار رعايا الدولة الرستمية في الجبال، وقسم منهم امتهن حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر حسب الظروف الطبيعية(٣٠)، وقدحدث أول احتكاك له بين الأغالبة والرستميين زمن الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي كان معاصراً للإمام عبد الوهاب بن رستم الأباضي الذي تولى الإمامة٢٦٨هـ/ ٨٨١م، وسبب هذا الاحتكاك أن، بربر هوارة الأباضية، مافتئوا يثيرون القلاقل ضد بني الأغلب قصد انفصالهم عنهم والانضمام إلى دولة مذهبهم—الدولة الرستمية—ومن الواضح أن الإمام عبد الوهاب بن رستم هب لنجدتهم مستعيناً ببربر نفوسة القاطنين بالجبل المسمى باسمهم، رغم أن المصادر الأباضية تنكر ذلك، مشيراً إلى أن قدومه إليهم كان بغرض الحج وأن أهل الجبل قد أشاروا عليه بالبقاء تحسباً من مكائد العباسيين واعتقاله فيما لو علموا بوجوده في أرض الحجاز(٣١)، ويبدو أن بقاءه ساعده في الاضطلاع على أحوال بربر هوارة ومايلاقونه من متاعب من جيرانهم الأغالبة، فقام بضمهم إلى دولته وتعهد بالمدافعة عنهم، وعين عليهم والياً منهم اسمه مدراراً، بعد أن كانت هذه القبائل تعيش نظاماً اجتماعياً خاصاً بها يديره مجلس مكون من مشايخ قبائلهم راضين بالانعزال خوفاً من ضربات الأغالبة لقربهم منهم(٣٢).

ويبدو أن طابع العلاقات بين الدولة الرستمية، ودولة الأغالبة الممثلة للدولة العباسية في افريقية كـان واضحاً، ففي عهد الإمـام أفلح بن عبد الـوهاب الذي خلف والـده بعد وفاتـه سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م اندلعـت الفتن في عهده، وكان مـن أبرزها ثورة الثـائر نفاث الذي لم يـرض عن تـولية الإمـام، فلجأ الامام أفلـح إلى تضييق الخنـاق عليه مما اضطره للذهاب إلى المشرق ونزل لاجئاً سياسياً عند الخليفة العباسي ببغـداد، واستخدمه الخليفة وسيلة ضغط على الـدولة الرستمية، كما قـام الخليفة الواثق بـالله باعتقال محمد بـن الإمام أفلح المكنى بأبي اليقظان أثنـاء تأديته فريضة الحج. كل هذا يدل على ماكـانت تقوم به من تضييق الخناق على الدولة الرستمية.

وعمـد الأغـالبـة إلى إثـارة الفتـن الـداخليـة للـدولـة الـرستميـة، ويـرى صـاحـب الازهار(٣٣)، أن شخصـاً يدعى خلـف الخادم مولى بنى الأغلـب—استطاع عن طـريق بذل الأموال— إثارة الفتن بين سكان تيهرت، فـانقسموا إلى معسكرين، الامام وأنصاره مـن العجـم والنفـوسيين في جـانـب، والجنـد العـرب في جـانـب آخـر، ويـبـدو أن الجو الاجتماعي كـان مهيئاً لضرب العناصر بعضها ببعـض، اذ سرعان مانجح في مهمتـه وقام العرب والجند باحراق درب النفوسيين معبرين عن سخطهـم للبربر، وبالرغم من جهود الإمام أبي بكر في رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناوىء—العرب— في عدة مواقع، لكن الخلافات والفتن لم تهدأ واستمرت سبعة أعوام حتى عهد الإمام أبو اليقظان(٣٤).

وبـادل الرستميـون الأغـالبة الكيـد بـالكيد، فقـد ثـار بـربر الأبـاضيـة في طرابلـس سنة٢٤٥هـ/ ٨٥٩م بتحريض من الإمام أبـو اليقظان محمد، وفي هذا يشير ابن خلدون في كتـابه(العبر)(٣٥) أن الأبـاضية في طـرابلس ثـاروا على عاملهـا أيام الأمير ابـراهيم بـن الأغلب(٢٤٢—٢٤٩هـ=٨٥٦—٨٦٣م) وهزموا عاملهـا، فجهز الأمير ابراهيم جيشاً بقيادة أخيـه زيادة الله وتمكـن من اخماد ثورتهم. لكـن رغم هذه العـداوة فقد تـوحدوا في جبهـة قتاليـة واحـدة لدرء خطـر صـاحـب مصر العبـاس بـن منصور بـن طـولون سنـة ٢٥٦هـ/ ٩٠٨م، لاحبـاً بالأغـالبة ولكن لانقـاذ أخوانهم الأبـاضيـة التابعين لإليـاس بن منصور النفـوسي، الذي بطش ابـن طولـون بهم وهتك حجبهم(٣٦) بعـد أن قضى على الأغالبة بمقتل عاملهم على طرابلس، ويروي ابن عذاري، أن الياس هذا استغاث بالبربر القاطنين بطرابلس أو الضاربين حولها، ويبدو أن هؤلاء كانوا من أتباع المذهب ومحسوبين على الدولة الرستمية.

أضف إلى ذلك أن ابـن طولون قد أرسـل قبل رحيله من بـرقة إلى زعيم جبل نفـوسة يدعوه إلى الطاعة، ويتوعده إن لم يجبه إلى طلبه. لذلك تلاقت رغبة الطرفين في درء الخطر الطولـوني، ودليل ذلك أن الأمير الأغلبـي كان يقاتـل ابن طولـون لوحده قبـل أن يصل الأخير إلى طرابلس، وهـذا ما يفصح عنه ابن الـداية بقوله:(فلما كان اليـوم التالي وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثني عشر ألفاً من الأباضية)(٣٧).

ويبدو أن هذا الاتفاق كان مؤقتاً، بدليل أنه بعد مرور ستة أعوام على ذلك الحادث قام الأغالبة بالاعتداء على جبل نفوسة أيام الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد الذي خلف والده أبو اليقظان سنة ٣٨١هـ/ ٨٩٤م. وقتلوا عدداً من رجاله، ولعل الأغالبة وضعوا في اعتبارهم بأن يكونوا على بوابة مصر، وأن يبسطوا سلطانهم على تلك البقاع حتى لايفكر الطولونيين في الاعتداء مرة أخرى، وربما استأنسوا من أنفسهم القوة فقاموا بمعركتهم الشهيرة مع الرستميين عند موضع يقال له(مانو)، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم، ولم تقم لهم قائمة بعد أن انهارت قبيلة نفوسة التي كانت تشكل درعها(٣٨) الواقي وبسبب الخلفية الفكرية الأباضية؛ التي تصر على الزامية مناصرة الرعية لامامها(٣٩)، نتج عن ذلك عدم الاهتمام في الجيش، إلى جانب مايراه العلماء والفقهاء منهم، من أن وجود الجيش النظامي في الدولة يرأسه أعلى سلطة فيها يؤدي إلى فرض السلطة الفردية، وبذلك يتحول نظام الحكم من نظام دستوري جماعي إلى نظام فردي مستبد، لعل هذا كان سبباً في ضعف القوى العسكرية(٤٠) عندهم، إلى جانب مانتج عن انكسارهم في المعركة من إشاعة الفوضى، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنيتها السياسية والعسكرية، مما أسرع في زوالها فيما بعد.

أما علاقاتهم مع الدول الأخرى، فلم تكن بمثل ماكانت عليه مع دولة الأغالبة من التشابك والتعقيد، فكانت علاقاتهم مع بني واسول المداريين بسجلماسة، تقوم على الصداقة لوجود كثير من نقاط الالتقاء بين المذهبين الصفري والأباضي إلى جانب الزواج السياسي، فقد تزوج مدراراً بن اليسع الصغرى من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم(٤١)، وكان لهذه العلاقة أثرها الواضح في تيسير السبل التجارية للأباضيين الذاهبين إلى السودان.

أما علاقاتهم مع الأدارسة فقد اتسمت بالمرونة مابين الحرب والسلم(٤٢). ولكنها لم تأخذ المدى التي اتخذته مع الأغالبة، لاسيما وأن فرقة الواصلية—الذي كان يعد عبد الحميد الأروبي زعيمها— كانت تمارس حياتها في المجتمع التاهرتي مثل غيرها من الفرق الاسلامية الأخرى.

وارتبطت الدولة الرستمية بمصر ارتباطاً وثيقاً عن طريق التجارة إلى جانب وجود عدد من علمائها، أبرزهم: شعيب المصري الذي شارك بفتنة ابن فندين.

أما علاقاتهم مع الأمويين في الأندلس، فكانت تربطها العداوة المشتركة للدولة العباسية، ولكن التقارب فيما بينها لم يصل إلى درجة التحالف الفعلي ضد أعدائها، وإنما أقصى ماوصل إليه تبادل السفارات والهدايا، فضلاً عن الصلات التجارية والاقتصادية(٤٤)، حيث كانت تتردد السفن بين وهران والمرية حاملة العلماء والمسافرين إلى جانب البضائع التجارية، وكثرت وفود الاندلسيين إلى الحاضرة تيهرت(٤٥)، وكان

من أبرزهم عمران بن مروان الأندلسي، ومسعود الأندلسي، اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده، إضافة إلى حادثة ابن حفصون التي دلت على وجود الأندلسيين في تيهرت، وعلى تعاطف الأئمة الرستميين مع بني أمية بالأندلس إلى جانب ماقام به ابن رستم سنة ٢٠٧هـ-٨٢٢م بزيارة ودية إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أكرم وفادته.

وبالجملة توطدت العلاقات بين الطرفين في عهدي الأميرين عبد الرحمن الأموي وعهد أبي اليقظان الرستمي الذي كان يعد من الأئمة الأواخر في الدولة الرستمية الأمر الذي جعله يعرض الكثير من أمواله على الخليفة الناصر لأخذ رأيه فيها(٤٦).

وفي إطار الولاية للدولة: تفنن الأئمة في اختيار الولاة فلجأوا إلى سبر غورهم لمعرفة مدى رغبتهم بالولاية وزهدهم بها، فقد قام الإمام عبد الوهاب بسبر غور الوالي مدمان الهرطلي بأن أرسل له كتابين، تضمن الأول العزل، ويتضمن الثاني التثبيت، فلما عرض عليه الكتاب الأول وافق على ماجاء به، عندها سلم له كتاب التثبيت على الولاية بعد بيان حسن نيته(٤٧)، إلا أن بعضهم رفضها وطلب اعفاءه منها، فوافقه الإمام على طلبه، فقد طلب والي جبل نفوسة أفلح بن العباس، من الإمام عبد الوهاب بن رستم اعفائه من ولايته فوافقه على ذلك وعين بدلاً منه أبو منصور النفوسي التندميرتي(٤٨).

ومن ولاته في الجهات الشرقية من دولته، سلام بن عمرو اللواتي، واليه على سرت وماحولها، وسلمة بن قفطان الزراغي واليه على قابس ونواحيها، ووكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف على قفصة وما حولها، وأبو يونس وسيم النفوسي التمزيني واليه على القنطرارة وحاضرتها تيجي، وأبو عبيدة الجناوني، وأيوب بن العباس، والسمح بن أبي الخطاب، وأبو منصور النفوسي التندميرتي محل هؤلاء ولاته على جبل نفوسة والعلامة مدراراً واليه على جبل دمر.

أما الولاة الثلاثة، بيران اليزميرتني المزاتي، وجارون القمري الزناتي صهر الامام، ونهدي بن عاصم الزناتي فلم نعرف ولاياتهم.

أما ولاته في منطقة الأوراس، وشمال تيهرت وغربها وشرقها، وفي تبلغمت، والأغواط، وجبال راشد(جبال عمور) الآن، ورجلان وتيقورت، فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل هذا راجع لضياع عدد من الكتب التي كانت في مكتبة المعصومة مما جعلتنا نفتقر إلى هذه المعلومات(٤٩).

ويبدو أن الأئمة الرستميين مالوا إلى تعيين ولاة جدد عند توليهم الإمامة، فالإمام أفلح ابن عبد الوهاب قام بتغيير ولاة أبيه ولم نعرف السبب، ولكن طالما أن الوالي يمثل الإمام في ولايته، فربما لم يرض عن البعض منهم أو اقتضت الظروف تغييرهم، فقد عين سعد بن أبي يونس على قنطرارة، وميال اين يوسف على قبيلة نفزازة، وأبوالعباس بن

أيوب على جبل نفوسة بدلاً من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي، ثم استبدله في أواخر أيامه بأبي ذر إبان بن وسيم النفوسي المشهور بالفتيا، والذي لم يمارسها إلا بعد أن رخص له شيخه أبو خليل بالافتاء بقوله:(افت ياابن للناس بالرخص، فإن لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك)(٥٠).

وهذا دليل على الاهتمام بصفات الوالي الذي كان يجمع إلى جانب معرفته في الإدارة، العلم والورع ليتسنى له حل قضايا الناس ومشاكلهم، فهو في ولايته بمثابة الإمام في الدولة فالإمام أفلح وجه كتاباً إلى واليه ميال بن يوسف، يطالبه فيه بالتحلي بالصفات التي كان يتحلى بها السراة من الأباضية السابقون له، الذين كانوا يقضون على الفتن وهي في مهدها، وعلى البدع قبل انتشارها، خوفاً من بلبلة الفكر وتشتيت صفوف الأئمة قصد الحفاظ على وحدتها(٥١).

وجعل ولاته يراقبون بعضهم بعضاً، بارسال التقارير إليه، عما يقوم به بعضهم من أعمال الشغب والفتن في ولاياتهم، فقد أرسلوا له كتاباً بحق الوالي ابن فندين، يصفون فيه مايفعله وأعوانه من أعمال الشغب والفتن، وقد أشار إلى ذلك النفوسي في كتابه الأزهار بقوله:(...فكثرة الكتابات في حقه إلى الإمام من عماله وغيرهم ممن ائتمنهم توخصهم بمكانته وأخباره بأحوال الولاة والعمال والرعية في الجهات...) مما دعا الامام أفلح إلى أن يرسل له كتاباً يتوعده فيه ويتبرأ منه، والكتاب يخلو من البسملة والصلاة على النبي لأنه كتاب تهديد ووعيد ومما جاء فيه:(...ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فإن كنت كما كتب إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ماكتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لاطاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم الذي ابيحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك مالا بدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ماقيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها)(٥٢).

وقد يكرم الإمام أحد ولاته بتميزه عن غيره بأن يسند إليه في منصبه شخصاً يقوم بمساعدته، ويشاركه الرأي في المعضلات التي تواجهه يسمونه عندهم بـ(المزوار) المتفقة بالأمور الشرعية وغيرها، من هؤلاء الولاة؛ الوالي السمح بن الخطاب الذي ميزه الإمام عن غيره بهذا المنصب، وجعل معه مزواراً(٥٣).

ونهج الإمام عبد الرحمن ومن تلاه من الأئمة، منهج الاختيار للقضاة، فكان يعين في هذا المنصب ممن اتصفوا بالورع وسعة المعرفة والتقيد بالأحكام الشرعية، مع الاهتمام برغبة الشراة(٥٤) من أبناء المناطق المراد تعيين قضاة فيها، لتسهيل مهمتهم والتعاون معهم في تطبيق الأحكام. فقد حدث أن اختار الشراة أيام الامام أفلح (محكم الهواري)

الساكن بجبل أوراس ليكون قاضياً عليهم وأبلغوه باختيارهم، فرد عليهم قائلاً:«هو رجل نشأ في البادية لايعرف لذي القدر، قدره، ولالذي الشرف شرفه، وإن كان ليس منكم أحد حب أن يظلم ولايظلم، ولكن تحبون أي يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لاعراضكم وامتهان لأنفسكم». وهذا يدل بوضوح على رغبته التي تتفق مع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تعيين القضاة من البيئات التي نشأوا فيها، ولكن اصرار الشراة في تعيينه دون سواه، جعله يوافق على ذلك، فكتب وكتب معه الشراة إلى (محكم الهواري) كتاباً تضمن تكليفه بالقضاء جاء فيه:«بعد البسملة، أما بعد فإنه قد نزل بالمسلمين أمراً لاغنى بهم عن حضورك، وهم منتظرون لقدومك ولايسعك فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم، ليجمع رأيك ورأيهم على مافيه صلاح المسلمين».(٥٥)

ولما وصل الكتاب إلى (محكم)، حاول التهرب من التكليف، وعبر عن ذلك بقوله:«إن الحق مر أمر من شرب الدواء إلاكرهاً، وأنتم مترفون أبناء نعم، وغيري أحب إليكم مني، نصحتكم فاقبلوا نصيحتي»(٥٦). وفي قوله مايطابق قول الإمام، لكن اصرار الشراة جعله يوافق، فأنزلوه دار القضاء، وعينوا له خادماً يقوم بخدمته.

وفعلاً صدق ظنهم فيه بدليل أن شقيق الإمام أبا العباس وخصمه تحاكما عنده، بعد أن اعتذر الإمام أفلح عن البت في الخصومة لمكانتها عنده، وحبها إليه فحكم القاضي(محكم) لخصم شقيقه أبي العباس(٥٧)، مما ثار ثائرته فاشتكاه لشقيقه الإمام، فقال له الإمام:«ياأبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل، والصواب مافعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مداهناً»(٥٨).

وجرت العادة في تعيين قاضي الحاضرة أن يؤخذ رأي مشايخ الأباضية وغير الأباضية ممن هم في الحاضرة، شريطة أن يكونوا من كبار القضاة بعلمهم وتقواهم وضبط أحكامهم، فكان قاضي الحاضرة أيام الإمام أفلح عمروس بن فتح الله النفوسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، الذي أعيد إلى هذا المنصب أيام الإمام أبو بكر بن محمد(٥٩).

وعُرف عن قضاة الحاضرة إلى جانب علمهم ونزاهتهم نباهتهم وحسن ذكائهم، فالقاضيَ عمروس بن فتح الله النفوسي، عندما عرض عليه قضية متاع تخاصم فيه اثنان، قام على الفور بحجز المتاع وسؤال كل منهما على حده، ولما تبين له من استجوابها صاحب المتاع حكم له.

أما عن النزاهة، فقد كان أحد أولاد الإمام أفلح غير محمود السيرة، وكان قاضي الحاضرة أبو عبد الله محمد، وفي أيامه وقع ابن الإمام بمشكلة أخلاقية باعتدائه على فتاة تقدمت أمها بظلامتها للقاضي، فقام القاضي وأعوانه في البحث عن الفتاة، ولكنهمَ عجزوا عن العثور عليها، عندها قدم استقالته لأنه أدرك عجزه عن القيام بمهمته.(٦٠)

وبـالجملة كـان القضاة في الجرائم التـي تستوجـب الحدود كـالقتل والسرقـة والزنـا، وشرب الخمر، يمكنـون المتهم من الـدفاع عن نفسـه، وبيان حجتـه، فإن ثبتت جـريمته حكموا عليه بحكم الله، وينفذ الإمام في الحاضرة وولاتـه في الولايات حكم القضاء دون التهاون فيه، بغية إقامة ا لعدل ونشر الأمن في أرجاء الدولة(٦١).

أما عن مجلس المظالم، فقد تنوعـت أغراضه، فإذا كـان الغرض منه مناقشـة أصحاب الفكر المغـالين بأفكـارهم، عقـد لهم مجلس يضـم ذوي الاختصاص، لمنـاقشتهم، والـرد عليهم، ففي زمن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان يعقد كل يوم في المسجد الجامع مجلساً للبحـث في قضية مـن القضايـا، فيجلـس على وسادة مصنـوعـة من الجلـد، يقابلـه ذوو التخصص في المسألة المطروحة للبحث، ففي القضايـا الفكرية، كان يقابله رجل من كبار قبيلة نفـوسة واسمه عيسى بـن فناس، ورجل من كبـار قبيلة هوارة يكنى بـابن الصغير، امتاز عن عيسـى بغزارة علمه، وعرف عيسـى بكثرة ورعه عنه، وبين يـدي الامام وجوه الناس، كـان أدناهم منـزلة رجل مـن العرب واسمه محمـود بن بكر، ورجـل من العلماء البارزيـن اسمه عبـد الله بن اللمطـي الذي عـرف بكثرة تـأليفه وحسـن مناظـرته لعلماء المعتزلة وغيرهم من الفرق المغالية، يرد عليهـم مبيناً غلوهم، فكان بعمله يعد المدافع عن المذهب(٦٢).

أما إذا كانـت القضية سياسية، ضم المجلس رجـال السياسة لمناقشتها وبيـان مضارها من فوائدها، وإذا كانت ادارية، جمع لها الإداريين المحنكين، وإذا كانت حربية جمع لها قادة الحرب، وإذا كانت صناعيـة أو فلاحية جمع لها من أرباب الصناعة والفـلاحة، إلى جانب ندمـائه الذين يسـاعدونه في حل المشـاكل وتطبيق الأحكـام عليها، فهم بعملهـم يعدون ظهيراً له(٦٣).

وقد تصله ظلامات مـن القرى النائية مكتوبة باللغة البربـرية، فيقوم المترجم بترجمتها للغة العربية(٦٤) واصـدار الحكم فيها، وكان من أبرز المترجمين أبـو سهل الفارسي الذي يعد من أبناء الطبقة السابعة، من علماء الأباضية.

أما الحواضر وشبـه الحواضر فيبعث أهلها شكايـاتهم في ولايات الدولة بصحبـة عدد من رجال المجلس(٦٥)، فإذا قدمت إليه شكايات قام بالحال في عقد مجلس لها للبت فيها في نفس المكان.

أما الحسبة، فلم تكن مقصورة على موظفيهـا فحسب، بل شاركهم في مهامهم الشراة، وهم بمثابـة أهل الحل والربط عنـد أهل الجماعة، وهم مجموعـة من الرجال بلـغ عددهم الأربعين أو يزيـد قليلاً، وهـؤلاء اشتروا آخرتهم بـدنياهـم بمعنى أنهم تخلـوا عن الـدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة أو خوف، ولو أدى بهم الأمر إلى القتال(٦٦)، *فهم يمتحنون الأئمة والولاة ويسبرون غورهم ويعطون رأيهم فيهم من*

خير أو شر، وحكمهم عند الرعية لاينـاقش لثقتهم بهم وعلمهم بـاخلاصهم لـدين الله وتطبيق شرائعـه، ويشاركهـم في علمهم العلماء والفقهاء، فـالعالم أبـو عبيدة عبـد الحميد الجناوي أبـرز علماء جبل نفوسة أخبر الإمـام عبد الوهـاب بن عبد الرحمن بـن رستم عما فعلته خيله ودوابه من فساد في مزارع وأشجار أهل الجبل بسبب اهمال رعاته أثناء مروره مـن الجبل لتـأدية فـريضـة الحج قائلا لـه:«يـاأمير المؤمنين قد أذيـت الضعفاء والفقـراء واليتامـى بخيلك لاهمالك رعـاتك فكفها عن المضرة والا حـال بيننا وبينك هـذا، يعني السيف»(٦٧). فـأعجب الإمـام بقولـه وشكره على حـرصه واهتمامـه بأمـلاك المسلمين وعينه فيما بعد والياً على الجبل.

وبالجملـة فقدكـان رجال الحسبـة عندهـم شأنهم كشـأن غيرهم مـن دول الاسلام، يقومون باظهـار المعروف عند زواله، وإزالة المنكر عند ظهـوره، وتعددت اختصاصاتهم حتى شملت جميـع مناحي حياة الأئمة، فكـانوا يراقبون الحمالين الذيـن يحملون الدواب فـوق ماتطيـق، ويمنعون أصحـاب الحرف من إقـامـة مصانعهـم في المدينة حتـى لاتضر سكانها، ويهبون لنجدة كل ملهوف، ويضربون على يد الظالم، لهذا كان الأئمة يختارون لها رجالاً ممن عرفوا بالصرامة والحزم والحرص على تطبيق أوامر الشريعة، وكان جهلهم من أهـل نفوسـة الجبل الـذين نـزلوا في الحاضرة تيهـرت قادمين مـن الجبل، فـلا عشائر لـه يحابونها، ولاأقـرباء كثيرون ليغضوا الطـرف عنهم عندما ينحـرفون بأعمالهم عـن أصول الشريعـة(٦٨). وقد شـاهـدهـم ابن الصغير أيـام الإمـام أبـو اليقظان، فلخـص أعمالهم بقوله٠«...ثم أمر أبـو اليقظان قوماً من نفوسة يمشون في الأسـواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، قالـوا: «فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة ليوهم النـاس بانتفاخ لحمها أنها سمينـة عاقبـوه، وإن رأوا دابة حمل عليهـا فوق طـاقتهـا انزلـوا حملها وأمـروا صاحبهـا بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذراً في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه»(٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن بقايا هذا النظام مازال موجوداً في بلاد ميزاب جنوب الجزائر، يقوم رجـاله بهذه المهمـة بمحض اختيارهـم دون أن يتقاضـوا أجراً من خـزينة البلـدية، فيراقبون البـاعة خوفـاً من الغش أو الاحتكـار، ويأمرون بنظـافة الشوارع مـن الأقذار، واصلاح الطـرق من الحفر، وتـرميم المباني المتـداعية، وحراسـة المدن والقرى خوفـاً من اللصوص، أو دخول العابثين إليها من الدخـلاء، ومراقبة الحمالين الذين يحملون الدواب أكثر من طاقتها وغير ذلك من الأمور الأخرى(٧٠).

وسلـك الإمام عبـد الوهـاب في تعيين رجال الشرطـة نفس المسلـك الذي سلكـه في اختيار رجال القضاء، فعين لها رجالاً اتصفوا بـالأمانة وحسن الإخلاص في العمل، وفي عهد الإمام أبو حاتم انتشر الفساد بين أفراد الـرعية، فشاع السكر فيما بينهم، وكثر وجود دنان الخمـر والخوابي في البيوت، واقتنوا الغلمان اخـداناً، وانتشر السراق وقطـاع الطرق،

فاستدعى الإمام وجهاء الحاضرة ومشايخهم وأخبرهم بماهو حاصل، وطلب منهم اختيار رئيس للشرطة، لكي يقوم بقطع دابر الفساد الذي انتشر بين الناس بسبب الحروب، وكثرت الفتن، فأشار قسم منهم باختيار شخص اسمه نكّار كان قد قتل ابنه بين يدي الإمام، ورأوا من الواجب مواساته والتخفيف عما أصابه إلى جانب مااتصف به من سداد الرأي، وقسم آخر أشار إلى ابراهيم بن مسكين الذي له صلابة في الحق، لاتأخذه لومة لائم، فعين الاثنين رؤساء للشرطة، (فقاما بكسر الخوابي بكل دار مهما علت منزلة صاحبها، وضربا بالسوط، وسجنا كل مجرم وشردوا الغلمان الأفلات في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحملا الناس على الجادة، فخاف المنافق، وأمن البريء، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل، وسار الناس إلى بعضهم بعضاً، في أي وقت من الأوقات دون خوف أو وجل)(٧٢).

أما في طرابلس وجبل نفوسة وماتلاهما من المناطق، فلم يستطع الإمام أن ينشر الأمن فيهما مثلما كان بالحاضرة، وشغل الناس ببعضهم، ولم يقدروا على مساعدة الإمام أثناء حروبه مع الأغالبة(٧٣).

ولم تقتصر رئاسة الشرطة في الحاضرة على شخص يعين من أبناء الرعية، وإنما تجاوزتها إلى تعيين رئيس لها من أبناء الأسرة الحاكمة، ففي زمن الإمام أفلح، كان أخوه أبو اليقظان يقوم بتفقد الحراس ليلاً، فيعمل على ترتيبهم وتجهيز دوابهم، ويأمرهم بمراقبة الطرقات والضرب على أيدي المفسدين العابثين، فإن حصل شيء، يخبر أخاه في صباح اليوم التالي بما حدث(٧٤).

وكان التدريب على القتال مهنة واجبة على كل فرد منهم، حتى الصبية كانوا يدربونهم على الضرب بالقضبان بدلاً من السيوف اتقاء لشرها، حتى إذا مهروا في ضربها استخدموا الضرب بالسيوف، فكان مجتمعهم أشبه بثكنة عسكرية إلى حد ما(٧٥).

وولع الرستميون بتربية الخيل، وكان أمتع الألعاب لديهم لعب الفروسية والضرب بالسيف، وكان كل فرد منهم يظهر مهارته بها في كل مناسبة من المناسبات السارة والحربية، وكان من أبرز فرسانهم، بكر بن يبيب، وبكر بن عبد الواحد، وأيوب بن العباس. وهناك حوادث كثيرة دلت على ولعهم بالخيل، والتسلي بركوبها في أوقات الراحة، ففي أيام الإمام أبي الخطاب، كان جنده يتسابقون على ظهور الخيل في أوقات فراغهم، وفي يوم من أيام السباق، شاهدوا مايفعله عاصم السدراتي من فضائح بنساء القيروان عند غزوه لها، فأسرعوا إلى أمامهم أبي الخطاب يخبرونه بمايفعله عاصم وجنده، فقام أبو الخطاب بتجريد حملة عسكرية لانقاذ القيروان وهو يقول: «اللهم بيتك، اللهم بيتك».

ومن الأدلـة الأخرى الدالة على ولعهـم بفنون الحرب، ماطلبـه المعتزلة من فـارسهم أيوب بـن العباس بتعليم أبنـائهم على أساليـب القتال والضرب بـالسيوف، وماكـان من خـديعتهـم لـه ونجاتـه منهـم(٧٧). وكـانـوا يصفـون كل مـن يقـدر على حمل السـلاح ولايمتشقه بالنقص في الذكورية(٧٨).

ومن طرق القتـال عندهم تشكيل الصفـوف المتراصة وربط أرجلهم بعضهـا ببعض، وأخذ العهد على أنفسهم بعدم الفرار، وكانـوا في قتالهم يدورون مع المعركة حيث دارت، وسمي هـذا النوع من القتـال عندهم بمعـارك (الربد)(٧٩). وقـد يستدرجون عـدوهم لاقامة المعركـة بالقرب من الجبال ليستعينوا بها في التغلـب عليه لاسيما وإن معظمهم من سكـان الجبال(٨٠). ومـن عـادتهم في الحرب، عدم متـابعة العـدو أثنـاء فراره، وعـدم الاجهاز على الجريح(٨١).

وشارك العلماء اخوانهم المقـاتلين في ميدان القتال، واصطحب الجيـش النساء بغرض التشجيع والقتال في المعـركة إن لزم الأمر، والدليـل على ذلك ماحدث في معركـة (مانو) بالقـرب من مـدينة قنطـرارة المسماة اليوم بـ(تيجي) الـواقعة على جبـل نفوسـة في القسم الشرقي من حـدود الدولة، حيث قتـل منهم أربعمائة عالم وأسر ثمانين. أما النسـاء اللواتي صحبن الجيش فقد أوكلـن زواجهن لبعضهن بعضاً، فيما إذا وقع على احداهـن سطو من جند بني الأغلب، تقوم موكلتها بزواجها، خوفاً من الفسق بها.(٨٢)

واستخدم الجيـش طبولاً مصنـوعة أطرهـا من الخشـب أو النحاس ومغطـاة بجلود الأبعرة التي تشبـه بسمكها سمك الرق، يضربونها بعقـال من وبر يسمع على بعـد مسافة تقدر بالمشي على الأرجل ب أربـع ساعات، ولهم في ضربه طرق معروفـة لديهم يستدلون بها على الغرض المطلوب، فبمجـرد سماع الواحد منهم صوته يعـرف المراد منه؛ أما النفير أو وقف القتال في المعركة، أو إقامة الصلاة، فكان يضرب ضربات معينة تدل على دخول وقـت الصلاة، فيتـوقـف الجيش عـن السير، ويـؤذن المؤذن للصلاة، فيصلي بهم الإمـام ركعتي السفر، ثم يضرب الطبل ثانية بعد انتهاء الصلاة ايذاناً للرحيل(٨٣).

الحياة العلمية:

تمتع الأئمة الرستميون بثقافة عالية، فكان الإمام عبد الرحمن من جملة حملة العلم الخمسة التي قدمت إلى المغرب، وبفضل علمه لابفضل حسبه نال الإمامة(٨٤)، أما ابنه الإمام عبد الوهاب، فكان له من الخلوات العلمية الخاصة إلى جانب المجالس العلمية العامة، مما جعل طلبة العلم يتهافتون عليه للأخذ منه، مما علا من شأنه بين الناس وحفظ له مركزه كإمام للأباضية الرستمية(٨٥)، فإلى جانب ممارسته للتدريس، شجع الحركة العلمية في البلاد، وجلب إلى مكتبة المعصومة الكتب من المشرق في مختلف العلوم والفنون، كما شجع حركة التأليف، بتأليفه كتابا سماه(نوازل نفوسه) وهو مجموعة من الفتاوى التي كان علماء نفوسه يستفتونه بها، ويلاحظ من أسلوب الكتاب الفصاحة وحسن التمكن وعمق المعرفة في الشريعة، وكان يرسل الوفود إلى المشرق لشراء الكتب، فقد أرسل وفداً إلى الصرة مقر المذهب وأعطاه ألف دينار، لكن الوفد اشترى بالمبلغ ورقاً وأخذوا ينسخون عليه ماوجدوه من الكتب. ولكون مايكتبون عليه رقاً بخط عريض وكبير على طريقة الأوائل في الكتابة لذا فإن قطع الرق ملأت ثمانين غرارة—كيساً— ويبدو أنها وصلت صيفاً مما دعا الإمام إلى القيام بدراستها قبل حلول الشتاء، لأنه كان يخلع ملابسه ولايبق على جسمه سوى السروال ليزداد نشاطاً(٨٦).

أما ابنه أفلح فكانت ثقافته متنوعة، فإلى جانب فهمه لأصول العقيدة الإسلامية، كان بارعاً في الأدب والرياضيات، لكنه لم يتقن باباً من أبواب المعاملات وهو البيع والشراء الاتقان التام من وجهة نظرهم، لأنه أغفل مسألة من المسائل المختصة بالربا والبيع والشراء، أثناء مناقشة أبيه الإمام عبد الوهاب له، فمنعه من الذهاب بتجارة إلى بلاد السودان قائلاً له:«ارجع حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لاندري فرجع»(٨٧).

كما برع في قرض الشعر، من قصائده التي نظمها يحث فيها الطلبة الذين ينشدونها في المناسبات، حتى أصبحت من الأناشيد الوطنية عند أهل ميزاب، مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يرك أشخاصاً روحاً وأبكارا
أشدد إلى العلم رحلاً فوق راحلة وصل إلى العلم في الآفاق اسفارا

واصبر على دلج الأغساق معتسفاً مهامه الأرض أحزاناً وأقطارا حتى تزور رجالاً في رحالهم فضلاً فأكرم بأهل العلم زوارا ويستمر في قصيدته داعياً طلبة العلم إلى اعمال عقولهم لفهم مايحفظون ويرشدهم إلى التربية النفيسة والمران الذهني فيقول:

وأحسن الكشف عن علم تطالبه والزم دراسته سرا واجهارا ويطالب بحسن الانتقاء في اختيار تعلم العلوم فيقول:

فاطلب من العلم ماتقتضي الفروض به
واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً واطلبه ماعشت في الدنيا
ومدتها لموقف العرض أن لاتورد النارا واجعلـه لله ولاتجعله مفخرة ولاترائي به بدوا واحضارا وهـذين البيتين الأخيريـن يدلان على انسجـام نظرة ا لأئمـة للعلوم مـع هدف الدين الحنيف.

أمـا أخت الإمـام أفلح، فقـد برعـت في العلـوم الشرعية واللغـوية إلى جـانب علـم التنجيـم(٨٩)، وبرع الإمـام يعقوب ابـن أفلح بـالعقـائد السماوية الأخـرى إلى جانـب العقيدة الاسـلامية، فحفظ الانجيـل والتوراة إلى جانب القـرآن الكريم، وكـان يستخدم علمه بما يتناسـب مع متطلبات حياتـه، فقد عرض عليه أهـل مدينة «ورجلان» الإمـامة أثناء دخوله المدينة فاراً من الفاطميين، فقال لهم قولاً مشهوراً أصبح مضرب المثل:«وهل يستتر الجمل بالغنم»، وهذا يدل على حسن تقديره للأمور(٩٠).

أما الامام أبو اليقظان محمد فقد كـان يدرس في حلقات ثلاث أنواع العلوم المختلفة. وكانت مسـاجد حواضرهم عـامرة بالعلماء، ومسجدهـم الجامع بالعاصمـة تيهرت كان مجمعاً لأهل العلم، تعقد بـه المناظرات بين الفرق، وكانت كل فرقـة تود الاجتماع بالفرقة المخالفة لها في المذهـب لتطلع على ماعندها، وامتـازت الفرق الاباضية عـن غيرها بلطف المناظرة(٩١).

وإلى جانب المناظرات العلمية، وفدت وفـود طلابية من المغرب إلى عُمان لتلقي العلم من العلماء العمانيين، ويصف أبو سعيد الكدمي ذلك بقولـه:«كان من العلامة ابن بركة في بهلا(٩٢)، وكان ابـن بركـة غنياً اشتهـر بغناه وكـان غناه ظهيراً للعلـم، ولذلـك يقصده الطلبة من عمان وغيرها، حتى قيل: ان الطلبة المغاربة كانوا لايفقدون من مقامه»(٩٣).

وعقدت حلقـات الدرس التـي يدرس فيها العلـوم المختلفة، فيجـد الطلبة فيهـا كل مايـريدون من مختلف أنـواع العلوم إلى جانب العلـوم الشرعية من تفسير وحديـث وفقه وأصـول، بـالإضافـة إلى العلـوم التطبيقيـة من فلـك وطـب وكيميـاء، وصناعـة أدويـة ورياضيـات ولم يقتصر الأمر على الطلبة فحسـب، بل تعداه إلى كـل فرد من أفـراد الأمة، فعمدوا إلى تعليم العبيد والإماء، وبخصوص الإماء ذكر الشماخي، إن إماء نفوسة كن إذا وردن إلى الغابـة للاحتطاب يتـذاكرن بمسائل كتب الإمـام الفقيه(ماطـوس) في الشريعة الإسلامية(٩٤)، أما الحرائر فكـن إلى حد ما أكثر معرفة بأسرار اللغة العـربية والدراية في العديد من الفنون، خاصة الفقهية منها، والتي تتماشى مع مايتطلبه المذهب.

ويبدو أن رعاية الأئمة للعلوم جعل منها مطلباً جماهيرياً، وهذا ماأشارت إليه المصادر الاباضيـة في بعض الحقب الـزمنية، بأنـك لاتجد قرية مـن القرى إلا وفيها مـن يفتي بها، وربما كان في كثير مـن المساكن من تمتع أهلها بوجـود علماء فيها، يقومـون بتعليم ذويهم وغيرهم مـن الناس، ويحلون لهم مشاكلهـم سواء كان منها مـايتعلق بالشعائر الـدينية أو المعاملات.

أما الخطباء، فكان من أبرزهم ابن أبي ادريس، وأحمد التبه، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، والذي قال عنهم المؤرخ ابن الصغير بأنهم جميعاً كانوا يستعملون خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، باستثناء خطبة التحكيم، لكن الخطيب أحمد بن منصور كان قد شذ عنهم، وخطب خطبة التحكيم الذي بدأها:«الحمد لله الذي نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقول إلا إليه.. —إلى أن يقول— اللهم أرض وصل على الخليفتين المباركين بعد نبيِّك أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك، وماأثراه من نبيّك... إلى أن يختم الخطبة بقراءة سورة(الاخلاص) وبعد اتمامها ينزل عن المنبر(٩٦).

وتمتعت المدن الاباضية في الشمال بازدهار علمي بفضل وفرة العلماء بمختلف التخصصات من هذه المدن: تنس، والخضراء، وافكان، وبني واريغن، وستغانم، وقلعة هوارة، ووهران، وتامزغران، وتاغريبت، والغزة، واوزكي ومعسكر ، وشلف، والرها، وقصر الفلوس، وبيّل، ومدينة جبل توجان، وجبل لازغ، حيث برز فيها عدد من العلماء، كان من أشهرهم يهود بن قريش التاهرتي، الذي كان متطلعاً في عدة لغات منها، البربرية والعربية والعبرانية والأرمنية والفارسية، مما أهله بأن يصبح مرجعاً يرجع إليه بما يسمى الآن بالبحث المقارن في اللغات، وانشاء أسس النحو التنظيري(المقارن) في الجنوب من الحاضرة تيهرت، وجد عدد من العلماء في مدينة تاجمون، وتاويلا، والأغواط، وورجلان، عروسة الصحراء، وأكبر حواضر المغرب وأغناها مالاً وعلماً.

أما المدن الشرقيةمن مثل: توزر، ونفطة، وقابس، وجربة، كانت تزخر في العلماء، وكان من أبرزهم(محكم الهواري) وابنه هود، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله، وأبو اليقظان، وعبد الله اللمطي، ومحمد بن بكر، وزكريا بن بكر الغساني، وابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهل الفارسي، وأبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي، الذي أوصى ابنه فأحسن الوصية فقال:«لايكن ندبك إلى الناس أوكد من ندبك لنفسك، ولايكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان، وكالسيل للأدران، وكالسماء للماء»(٩٩). وهناك مدن كانت حلقة وصل بين علماء المشرق وعلماء الاباضية في مختلف أرجاء الدولة لقربها من الحدود مما سهل على علمائها الرحيل للشرق والاختلاط بعلمائه منها: زواغة، ولبدة، وتاورغا، وسرت، وودان، وفزان ، وزويلة، وغدامس.

أما جبل نفوسة، فقد ضم مئات القرى وعشرات المدن المزدهرة بالعلم والعلماء، كان من أبرزها كياو، وتادلوت، ويفرن، وكان من أبرزها علماء هذه المدن، عالم مدينة جادو، الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة شروس، والتي تعد العاصمة العلمية في الدولة الرستمية إلى جانب العاصمة السياسية تيهرت، أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني.

وكان لقرب الجبل(١٠٠) من المشرق وحصانته التـي حمته من اعتداء الدول المجاورة له لمدة طويلة مـن الزمن، واستقرار حملة العلم الخمسة فيه لابـأس بها، قبل انطلاقهم إلى مناطـق المغرب الأخرى، كـان له أثر في تكـوين بـذور علمية نضجت وأينعـت فيما بعد، بفضل ماوجد فيه مـن علماء منهم، أبو عمران موسى بن زكريـا، وأبو عمر الشيلي، وعبد الله بن مانوح، وأبو زكـريا يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمـام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، الذي قاموا بتأليف موسوعـة اسلامية سميت بـ (ديوان الأشياخ) المكون من خمسة وعشريـن جزءاً،ولا يـزال قسم مـن هذه الأجـزاء مخطوطـاً بوادي ميـزاب جنوب الجزائر(١٠١)، إلى جانب مـؤلفات أخرى أهمها كتاب الايضاح) (١٠٢)، للشيـخ عامر النفوسي المكون من ثلاثة أجزاء، يبحث في الشريعة الاسلامية، وقناطير الخيرات، للشيخ اسماعيل الجيطـالي المكون مـن ثلاثـة أجزاء والشبيـه بكتاب علـوم الديـن للغزالي الـذي يتضمن كثيراً من المعلومـات من الفلسفة الاسلامية، وعلم النفـس، والأخلاق والدين، والأدب، وكتاب (الوضع)(١٠٣) لأبي زكريا الـذي بحث في الشريعة الاسلامية أصولاً وفروعـاً. وهناك العـديد مـن المؤلفات الأخـرى لكثير من العلماء، إلى جـانب المؤلفـات الشرعية وقدوم الدعاة مـن المشرق، كل هذا ساهم مساهمة فعالة في احـداث ثورة فكرية في المغرب كله أخصبها التنافس الفكري فيما بينهم وبين غيرهـم من أتباع المذاهب والفرق الأسلامية الاخرى، ونتج عـن هذا الاخصاب ملاحم فكرية مع السنـة المالكية والمعتزلة والشيعة الفـاطمية، فقـد غلب مـذهب مـالك على افـريقية وسـاد ماعـداه من المذاهـب الأخـرى، إلا أن رجال المذهـب مـن أباضيـة وصفـريـة؛ فقد تسللـوا إلى القيروان وإلى مسجدهـا الجامع، حيث أخذ فقهـاء الاباضية في ممارسـة نشاطهم في أفريقيـة إلى أن تولى القاضي سحنـون بن الفـرات منصب القضاء فيهـا، فحظر عليهـم وبدد حلقـاتهم وأخذ بملاحقتهم(١٠٤)، على خلاف الاباضية الذين رحبوا بفقهاء وعلماء المذاهب الاسلامية الأخرى، وأخذوا في منـاظرتهم، ولم يتعرضوا لأحـد إلا من اتصف بالغلـو والمروق عن الدين، ولما كان المذهب الاباضي أقرب المذاهـب لأهل السنة، فقد تحالف علماء السنة مع علماء الاباضية لمناوءة المذهب الشيعي، وظهر هـذا الائتلاف واضحاً في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد.

أما المعتـزلة والواصليـة، فكانت مضـاربهم بالمغـربين الأوسط والأقصى، وبلـغ عدد المقيمين منهم حول الحاضرة تيهرت مـايزيد على ثلاثين ألف من الـواصلية، وعلى الرغم من مـواقفهـم السلبيـة من الـدولة الـرستمية فقـد حظوا بتسـامح دينـي إلى أبعد الحدود، فكانت المنـاظرات فيما بينهم لاتنقطع، وكان قطـب الأباضية عبد الله اللمطي لـه مواقف حميدة في جدال مع المعتزلة على نهر مينة خارج الحاضرة.

ويبدو أن المذهب الشيعي وجد طريقه إلى العاصمة تيهرت، ولكن اتباعه كانوا قلة رغم اسهاب المصادر الأباضية في الحديث عن المناظرات التي عقدت بين علمائهم وفقهاء الشيعة خاصة بعد سقوط الدولة سنة ٢٩٧/ ٩٠٩م. وكان من أبرز المناظرين يومذاك نوح بن سعيد بن زنفيل الأباضي الذي ناظر أبا تميم المعز لدين الله الفاطمي، ويستدل من هذه المناظرة على حصافة الشيخ واحترام المعز للعلماء(١٠٥)، ومما لاشك فيه أن المحاورات والمساجلات بين علماء المذهب الأباضي وشيوخ وعلماء الفرق الاسلامية الأخرى، قد أثرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب كله، وهذا ماعبر عنه النفوسي بقوله:«...وكثرت الآراء والأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل حول مسألة الأمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها، ويدعي أنه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة»(١٠٦).

وكان لاجتهادات بعض المجتهدين أمثال فرج بن نصر المسمى(بنفاث) وتبني بعض الفقهاء أمثال يزيد بن فندين آراء الامامة المشروطة دور في تطوير الأساليب والمفاهيم الاباضية وسلك علماء المذهب مسلكاً حميداً في مساعدة الطلبة الفقراء، فكانوا ينفقون عليهم من خواص أموالهم، فقد بلغ عدد العلماء في بادية افريقية ممن ينفقون على الطلبة المحتاجين، اثنان وثلاثون عالماً، كان أبرزهم في الانفاق والايثار أبو عبيد(وشق)، وأبو زكريا الذي أنفق جل ماله على طلبته في سنين المسغبة(١٠٧).

وحث العلماء طلبتهم على التحصيل والدراسة، منهم أبو يحيى أحد علماء قابس الذي طلب من طلابه الصعودإلى مكتبة جبل دمر الموجود في مدينة تموسلت إحدى مدن الجبل، والذي قوى من عزيمتهم بقوله:«إن رجعتم إلى أهاليكم جاهلين ولم تدارسوا ماعزمتم عليه من الكتب فتكونوا علماء كنتم كمن ترك الاسلام عمداً»(١٠٨).

ونشط الأئمة ونشط معهم العلماء في ترجمة العلوم من اللغة الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، مما أدى إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لكل من أراد الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس وحكم الهند، فكان لابد له من معرفة اللغة العربية الفصحى، إلى جانب اتخاذها لغة رسمية في الدواوين لأنها لغة القرآن الكريم.

وعمل العلماء على نقلها إلى المناطق النائية عن طريق تدريس العلوم الشرعية، وشجع بعض المشايخ الناس على تعلمها، فقد قال الشيخ أبو زكريا النفوسي أحد مؤلفي ديوان الأشياخ بهذا الخصوص:«أن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من مسائل الفروع وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد»(١٠٩).

مما دفع طلاب العلم على مختلف مستوياتهم إلى الاعتكاف على دراستها وفهم نحوها ضبطاً لهم عند التحدث بها. لكن رغم ذلك فقد وجدت فجوات في مسيرة التعريب في

هذه الـديار، ففـي القرى الـواقعة في المنـاطق النـائية على رؤوس الجبـال، كانـت دروس الوعـظ والارشاد تلقـى باللغة البربـرية قصـد تعريـف سكانها بالعقيـدة الاسلاميـة ممن يجهلـون اللغة العـربيـة، إلى جانـب تأليـف المؤلفـات التي كتبـت بحـروف عربيـة ذات مدلـولات بربرية لـلاطلاع عليها عند الحاجـة، كان من أبـرزها كتاب(عقيدة التـوحيد) (١١٠). الذ قام بترجمته للغـة العربية الشيخ عمر بن جميع والذي يعـد من أهم الكتب في علم الكلام.

ونتيجة لقلـب الحرف العربي على الحرف البربري، فقـد اندفع بعـض البربر إلى الحنين للحروف البربرية في أيامنا هذه خـاصة في بلاد ميزاب جنوب الجزائر إلى استخدام حرف الزين البربـري في النقش، والطرز والنسيج وفي تزيين جبين المرأة والعـروس به وهو على الشكـل التالي(   )، ويبـدو مثـلا تغلـب الحرف تغلبت الكلمـة، فـاللهجـات البربريـة المتداولة في أيامنا هذه في المغرب تأثـرت بشكل كبير في اللغة العربية، ويمكننا القول بأنها عربية بشكلها ومضمونها إلى حدما، فيكفيك كي تصبـح الكلمة العربية بربرية أن تضيف إلى أولها أل التعريف وإلى أخرها تاء فتصبح بربـرية، مثال ذلك الوردة الوردت، وفي جملة عمر اسكن في الدار يحولونها إلى آعَمْرَغ تادرات)(١١١).

وهنا لابد من الحديث عن بعض الأدباء والشعراء الأباضيين، وكان من أبرزهم، بكر بن حماد التاهرتي الذي يعد من فحول الشعراء في المغرب في القرن الثالث للهجرة، والذي ولـد في الحاضرة تيهـرت سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م، ورحـل إلى المشرق أيـام شبابـه والتقـى بـالشاعـر دعبل، وعلي بـن الجهم المتـوفى سنة٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. فـأخذ عنهـم وتأثـر بهم، ورجع إلى المغـرب الأوسط—الجزائر— بعـد أن تم تحصيلـه، وأصبح مـن كبار شعـراء الزهد في المغرب مثلما كان أبو العتاهية في المشرق(١١٢). من شعره في الزهد قوله:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال حروقها.

فياأسفي من جنح ليـل يقودها وضوء نهار لايزال يسوقها وأبدى المنـايا كل يوم وليلة إذا فتقت لأيستطاع رتوقها ويصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها.

ومن شعره في رثاء ولده:

بكيـــت على الأحبـــة إذ تـــولـــوا
ولـــو أني هلكـــت بكـــوا عليـــا
فيـــا نسلي بقـــاؤك كـــان ذخـــراً
وفقـــدك قـــد كـــوى الأكبـــاد كيـــاً

ومن شعره في وصف برد مدينة تيهرت:

وماأحسن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت.

ومنهم، أحمد بـن الفتح بن خِزار، وسعـد بن أشكل التـاهرتي، والإمام أفلح بـن عبد الوهاب، والأديـب البليغ بن هرمة وغيرهـم ممـا لايتسع المجال لذكرهم وتتبـع أشعارهم وأدبهم.

هذا ماقام بـه الأئمة والعلماء ورجال الفكر من جهود طيبـة على مستوى الدولة وعلى مستوى المغرب العـربي من نشر للثقافة الاسـلامية واللغة العربيـة والعمل الدؤوب على تعريب مراكـز الفكر والحض على تعلم اللغة لفهم أسرار العقيدة، ولم يكتفـوا بذلك، بل قاموا بجهود حسنة على المستوى الخارجي مما أدى إلى التلاقح الحضاري والانماء الفكري مابين رسـل الاباضية الممثلين بـالتجار والعاملين على نشر الاسـلام في الديار السـودانية التي يتـاجرون معها، فقد قـام أبو الحسن بـن علي بن يخلف التيمجاري النفـوسي بجهود حسنة في نشر الاسلام في بلاد السـودان سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م وبفضل جهـوده أسلم ملكها بعد أن كان وثنياً، كما قـام عامل نفوسة القاضي عمروس بن فتـح الله بارسال عدد مـن العلماء إلى بلاد زغـاوة فمكثوا عنـدهم مـدة طويلـة حيث طـاب لهم المقام، كما قـام تجارهم بدور إيجابي كبير في نشره في المنـاطق السودانية الواقعة إلى الجنـوب من الصحراء، وكـان عملهم مكمـلاً لعمـل عقبة بـن نافـع، وعبـد الرحمن بـن حبيـب، وعبيد الله بـن الحبحاب الذين عملوا على نشر الاسلام بأطراف السودان فكان عمل التجار دفعاً جديداً له للمزيد من الانتشار في الداخل، حتى استطـاعوا أن يوصلوا مبادىء الدين الحنيف إلى مايسمى اليـوم ببلاد غانة،وغينيا، وفولتـا العليا، وليبيرية، والتشاد، وداهومـي، وساحل العاج، وساحل الذهب(١١٣).

الحياة الاجتماعية:

تعـددت اللهجات واللغـات في المجتمع الـرستمي بتعـدد عناصر تكـوينه فكـان إلى جانـب اللغة العربيـة الفصحى والعامية البـدوية، اللغة الفـارسية، والبربريـة والحبشية، ويظهر هذا واضحاً في الكتـاب الذي أرسله الامام عبد الوهـاب، إلى المتمردين ضد والي جبـل نفوسـة أبي عبيـدة عبـد الحميد الجنـاوني بـاللغـات التاليـة: العـربيـة، والبربريـة، والحبشية(١١٤)، لكن معظم المجتمـع الرستمي من البربر سواء كانوا مـن قبائل مكناسة وزناتة البترية، أو من قبائل صنهاجه وزويلـة ومسوفة ولمتونة البرنسيـة، التي اتحدت مع بعضها وكونت جـانب الأفارقة من السودان والعرب الذيـن لجأوا للدولة من المشرق أو من المغرب، وبقايا الروم والفرس واليهود كل هؤلاء كونوا الدولة الرستمية(١١٥).

فابـربر الزنـاتيون كانـت نسبتهم أكثر مـن البربر الكتاميين، فقبـائل زناتة البتريـة من مـاكسين، ورشفانـة ومغراوة، وبنـو راشد، وزقـارة اتخذت مـن السهول الـواقعة مـابين تلمسان وتيهرت مضارب لها، وقد عرف رجالها بركـوب الخيل وكرم الضيافة إلى جانب تميزهـم عن غيرهم بـوجود العرافـة بينهم ممن لـديهم خبرة بالاقتفاء والكيـاسة وضرب الكف(١١٦).

أما سكان جبل نفوسة ودمر، فكان بعضهم يعيش على السلب والنهب، ويسمون بـ(رهانة) وهم جماعة يركبون النجب من الإبل المعروفة بالسرعة والمضي في السير، يغيرون بها على القبائل العربية المجاورة لهم، ويعودون بالغنائم إلى مواضع سكناهم في جبل نفوسة(١١٧) ودمر، لكن البعض منهم وبالأخص من سكان السهول الواقعة مابين تلمسان وتيهرت مارسوا حياة الزراعة مثل قبائل البرانس من صنهاجه إلى جانب رعاية الماشية. وانشأوا العديد من القرى منها على سبيل المثال لاالحصر، قرية الغدير التي مكث فيها الباحث عاماً كاملاً، وقرى عديدة أخرى أنشىء بعضها على قمم الجبال، وبعضها الآخر في السهول والبطاح، إلى جانب المدن مثل، مدينة أوربي(١١٨) المسماة بالبربرية أزقي الواقعة على بوابة الصحراء القريبة من بلاد لمطة ومسوفة والبعيدة عن سجلماسة بمسافة تقدر باثنتي عشرة مرحلة وأكسية أهلها من الصوف المسمى عندهم بـ(القداور)(١١٩).

ويبدو أن نمط العيش أثر في سلوكياتهم، وقلل من التعمق في فهمهم لأصول الشريعة، فبدو جبل نفوسة، اتخذوا من ربط المساجد أمكنة لربط خيولهم، ومخازن لخزن حبوبهم قصد التبرك بها لاالاساءة إليها(١٢٠).

أما بقايا الروم ممن كانوا على دين النصرانية، فقد أسلم بعضهم بحكم اختلاطهم مع المسلمين وحسن اسلامهم مثل، أبو منصور الياس والي جبل نفوسة وأحد شيوخ الدعوة الذي كان من أصل نصراني(١٢١).

أما اليهود، فقد شكلوا على الرغم من قلتهم ثقلاً اقتصادياً كبيراً، لكن قيمتهم الاجتماعية في المجتمع مفقودة خاصة في البوادي، فقد ورد في ترجمة الشيخ أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي، أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل أفتى فيها: «الثالثة.. إذا عملت غزلاً قد صبغها اليهودي فسمته راين إن وضوءهن قد انتفض لسه لأن اليهودي نجس، فقال لهن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء»(١٢٢). لكن الفرس كانت لهم منزلة تختلف عن غيرهم، فالأئمة يرجعون بأرومتهم إلى العنصر الفارسي حسب ماروى بعض المؤرخين، لذا اعتمدوا على الفرس الموجودين في الدولة، وأطلقوا أياديهم في المجالين الاقتصادي والسياسي بمنح زعمائهم اسمى المناصب منهم، ابن وردة صاحب القيصرية المسماة باسمه، فقد كان له حرس خاص بحرس قيصرته إلى جانب تمتعه بمنصب رئيس الشرطة(١٢٣).

أما العرب الذين هربوا من حكم بني الأغلب أو من الاضطهاد المذهبي في المشرق أو المغرب، فقد عمل بعضهم في التجارة، وبعضهم الآخر كان منضو تحت لواء معين كالواصلية مثلاً، وهي احدى فرق المعتزلة التي استقرت في المنطقة الواقعة في الشمال من تيهرت والممتدة من مستغانم إلى وهران، وفي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة(تيلغمت)، وفي الصحراء وخاصة في مدينة العطفاء الواقعة إلى الجنوب من ميزاب، حيث توجد مقبرة المعتزلة الدي لازال أهلها إلى اليوم يحافظون عليها(١٢٤).

وبالجملة فقد تضافر أبناء المجتمع الرستمي في مساعدة بعضهم بعضاً بما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي، فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان أغنياء الناس يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص(١٢٥).

ويبدو أن اختلاط العناصر والأجناس المختلفة في المجتمع الرستمي ساعد بعضها بعضاً في تغيير بعض الأنماط المعيشية لبعض الفئات من المجتمع، فالبدو الأقل حضارة تأثروا بغيرهم من العناصر الأكثر تحضراً، فانتقلوا من بساطة العيش إلى الرفاهية، فبنوا القصور والأبنية الفخمة ذات القباب المرتفعة، والحمامات المتقنة، أما الفرس فقد اقتنوا الخيول، وزينوا القصور والبيوت بالستائر المزخرفة، وتنوعت الألبسة، وتعددت الأزياء عندهم وعند غيرهم من الأجناس، وفي هذا يقول ابن الصغير:«...وليس أحد ينزل بها—تيهرت— من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانة على نفسه وماله، حتى لاترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين ...»(١٢٦).

ومثلما نجم عن هذا الاختلاط من حسنات نجم عنه سيئات، فقد تفشت الرذيلة وكثر الفسق وشرب الخمر، وكثر اللصوص وقطاع الطرق مما أثار حفيظة الفقهاء، فثاروا على المناكر وحرضوا الأئمة على زوالها وإن بقي آثارها، لكن رغم ذلك فإن الطابع الديني الذي اصطبغ به المجتمع الاباضي كان السمة البارزة فيها، فهنالك الحج الجماعي الذي كان يقوم به أهل جبل نفوسة مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم، حتى ولد له في ركب من ركائب الحجيج ثلاثمائة مولود ذكراً، فمابالك بعدد لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلاً، ومن ليس معهم نساء(١٢٧).

ويصف الادريسي، نزعة التدين عندهم، مبيناً أن رجالهم ونساءهم يتطهرون كل يوم عند كل صباح، ويتوضئون لكل صلاة، وثياب الجنب لايقربها الطاهر وثياب الطاهر لايقربها الجنب، وهم مضيافون يطعمون الطعام لعابر السبيل، ويقدمونه للفقراء والمساكين، أمناء على أموال غيرهم، محافظين على أعراضهم كمحافظتهم على أعراض حرمهم عادلين في أحكامهم(١٢٨).

الحياة الاقتصادية:

توجهت أنظار الأئمة الرستمية منذ البداية إلى الاهتمام بالزراعة بصفتها المقوم الأساسي للاقتصاد، وتجلى هذا الاهتمام بحسن الاختيار لموقع الحاضرة تيهرت المحاطة بالجبال وبكثرة العيون الطبيعية الموجودة فيها، وخلوها من المستنقعات، ووجود نهري مينة وتاتش اللذان يصبان في وادي شلف، ولاسيما وأن نهر مينة كان يؤدي إلى جانب الخدمات الزراعية، خدمات صناعية بإقامة الإرحاء عليه بسبب جريانه الدائم(١٢٩).

وقد وفق الإمام عبد الرحمن بن رستم باختيار موقعها بعد أن ساوم أصحاب الأرض المقامة عليها في بيعها، لكنهم رفضوا ذلك ثم عادوا واتفقوا معه بأخذ قسط من غلاتها ومايباع في أسواقها كل عام وتم انشاء المدينة سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م، وقام الإمام برسم الموقع الذي اختط فيه مسكنه وأصبح يسمى بمعسكر الجامع ومن حوله دور الحكومة والأسواق وأحاطها بسور له أربعة أبواب، وخصص لكل سوق من أسواقها نوع خاص من البضاعة، فهناك سوق الأقمشة، وسوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصناعة، وكان أهم هذه الأسواق سوق المعصومة الذي هو بمثابة السوق المركزي الآن.

أما عن الأبواب، فكان لكل باب من أبوابها غرض معين يؤديه، فباب المطاحن؛ مخصص لنقل الحبوب وطحنها، وباب الأندلس مخصص للتجار المسافرين للأندلس عن طريق البحر بواسطة مينائها المسمى بمرسى فروخ والذي يمتاز بحصانته مما ساعد على حمايته من الأعداء، وحماية السفن من الأنواء والذي يقابله في الأندلس موانىء شاطبه، وتدمير، ومرسية، وأقلة. وباب الصفا، مخصص للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه، وباب المنازل مخصص للفلاحين الذاهبين إلى حقولهم وبساتينهم والعائدين إلى منازلهم بمحاصيلهم، مما أدى إلى تنظيم الحياة فيها(١٣١).

وعني الرستميون بالاستفادة من المياه فشقوا القنوات، ووزعوا جميع أنواع المحاصيل في سهول الحاضرة إلى جانب غرس الأشجار وإقامة البساتين، وعرفت المدينة عند المؤرخين بـ(بلخ المغرب)(١٣٢)، إلى جانب سهول اسرسو في جنوب تيهرت، وسهول وادي شلف والسهول الساحلية، وكل هذه السهول زرعت بالحبوب وأشجار الفاكهة وخاصة السفرجل الذي بلغت شهرته الآفاق، إضافة إلى الواحات المقامة على مياه الأمطار والآبار(١٣٣).

أما الزراعة في جبل نفوسة، فقد اعتمدت على مياه الأمطار، لكن رعي الماشية كان الغالب على معيشة سكانه، وكان لدى الدولة مراع واسعة وخاصة في المناطق المحيطة بالحاضرة، مما جعلها منتجعاً للقبائل الرعوية القاطنة في شمال الصحراء، ووصفها ابن حوقل عند زيارته لها بقوله:«أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين»(١٣٤).

وتفنن الرستميون بالأساليب الزراعية، فكانوا يبنون الأسوار حول حدائقهم وبساتينهم خوفاً من العبث بها أو دخول الحيوانات إليها. وقد يستعيضون عنها بغرز أعمدة في الأرض توصل بحبال للغرض نفسه(١٣٥)، ويبدو أن الزراعة عند الاباضية قد أصيبت بنكسة مثلما أصيب غيرها من المرافق الاقتصادية الأخرى بعد زوال الدولة، بدليل ماأشار إليه الدرجيني في كتابه الطبقات، عن نظام غراسة الأرض في واحات الجريد بقوله: «ومما حدثني به أبي عنه — رحمهما الله — أن أهل قرى تفيوس كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه»(١٣٦).

وإلى جانب الثروة الزراعية، كانت الدولة تعتمد اعتماداً خاصاً على التجارة، فكان التجار يحملون المنتوجات الصوفية والقطنية وأواني الزجاج، والفخار والخزف ذا البريق المعدني، والملح إلى بلاد السودان لندرته عندهم، فيبيعونه بأثمان مرتفعة ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلو دالحيوانات، وكان أهل ورجلان أصحاب القوافل الذاهبة إلى السودان ثم حماة لها، ورحب الأئمة الرستميون وعمالهم بتجار السودان، وفتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم، وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار(١٣٧).

ونشطت حركة السفن بين موانىء مدن تنس، ومستغانم، ووهران، وموانىء الأندلس، فكانت تأتي بالبضائع الأندلسية وتأخذ بالمقابل منتجات البلاد الرستمية، من منسوجات صوفية وغيرها من السلع المجلوبة من بلاد السودان من جلود وعاج(١٣٨).

وحرص الأئمة على ازدهار التجارة بتأمين السبل لحماية الأرواح والأموال، فوضعوا لها الحراس، وانشأوا الأربطة والمنازل وحفروا الآبار، وكان بعض أولادهم يرافقون القوافل لحمايتها، فقد عين الإمام أفلح ابنه أبا حاتم لحراسة القوافل الآتية من المشرق والمحملة بالبضائع والذهب خوفاً من الاعتداء عليها من قبل سفهاء زناتة الضاربين حول طرقها التجارية(١٣٩).

ومارس الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التجارة وكان من كبار الأغنياء في الدولة، ودليل ذلك قوله: «لو لم أكن إلا أنا وابن جرني وابن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين مما علينا من الحقوق الشرعية»(١٤٠).

ولدينا من الروايات مايؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب، وأبي اليقظان(١٤١) محمد بن أفلح، وأبي حاتم يوسف، بممارسة التجارة إلى جانب التجار من أبناء الرعية(١٤٢). وكانت قوافل الدولة تخرج من مدنها في المغربين الأوسط والأدنى إلى الأندلس بالشمال

وإلى مصر والقيروان في الشرق، ويعود الفضل في وصول القوافل البرية والرستمية إلى مصر، إلى قبائل هوارة ونفوسة وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في طرابلس والتي كانت تجوب الصحراء ذاهبة آتية محملة بالسلع التجارية وخاصة قبيلة هوارة التي كانت تقطن في المناطق الشرقية من طرابلس، والتي كانت تتولى رعاية القوافل الرستمية الذاهبة إلى السودان، ويبدو أن استقرارها في الصحراء كان لهذا الغرض، فكانت لها محطات تجارية ومعاملات مع أبناء قومها من هوارة تيهرت والأوراس. وقد نوه الإدريسي بثرائه بقوله: «...وهوارة أغنياء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، وضروب من الأفاوية، والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفّر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة»(١٤٣).

وشاركهم في هذه المهنة الواصلية التي هي فرقة من فرق المعتزلة، وشاع بينهم الغنى واليسار، ورحب الأئمة وولاتهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم. ويرجع لويسكي أن سبب إجادة سكان جبل نفوسة للغة الكانم يعود لوجود جماعات من أهل السودان فيه(١٤٤).

وبالجملة فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن الدولة، والدول التي تتاجر معها. إما عن طريق تبديل السلع(المقايضة) أو عن طريق الشراء بالنقد، فكانت مدينة وارجلان تزخر بالتجار الذين يتاجرون مع بلاد غانة ونقاوة(هكاره) والذين لهم دراية باستخراج معدن التبر وضربه على شكل دنانير في دار السكة بالحاضرة(١٤٥).

وعرف المجتمع الرستمي بكده ونشاطه، وحسن تقواه والتزامه بتطبيق أوامر الشريعة، فكان الأغنياء من أبناء المجتمع يدفعون زكاتهم إلى بيت المال، وكان عمال النواحي وجباة المال يوزعون هذه الزكاة على فقراء الناحية التي يأخذونها من أغنيائهم، وينوه ابن الصغير في حسن التزامهم بدفع الزكاة وتوزيعها فيقول: «يخرج أهل الصدقات أواني الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لايُظلمون ولايظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعير تباع، ويدفع منها عطاء العمال، ومابقي يوزع على الفقراء، فيخصون من في البلد ومن حولها، ويحصى مافي الأهراء من الطعام ويشتري من باقي الصدقة أكسية صوف، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقد ر ذلك. ومااجتمع من الجزية والخراج ومأأشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه، وقضائه، وأهل شرطته، والقائمين بالأمور مايكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين(١٤٦).

وشهدت الدولة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بسبب ماتسمت به من سياسة التسامح مع أعدائها السياسيين والمذهبيين وترحيبها بالغرباء، الذين وفدوا عليها من كل مكان واستقروا فيها، وفي هذا يقول ابن الصغير:«وأتتهم الوفود الرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم(١٤٧).

أما عن طوائف اليهود المسمون بـ(الردهانة) والذين كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم—الجيتو— في العاصمة، فقد نالوا من التسامح وحرية العمل الشيء الكثير مما جعلهم يسيطرون على مناشط التجارة فيها.

هذا عن التجارة الخارجية، أما عن التجارة الداخلية، فقد وجد في المدن الاباضية مايسمى اليوم بالمعارض التجارية المحلية، كان من أبرزها مدينة الخضراء الواقعة بالقرب من مدينة مليانه في الاقليم الغربي من الجمهورية الجزائرية، حيث يعقد فيها سوق محلي تعرض فيه مختلف أنواع السلع المجلوبة من القرى المحيطة بها، ومدينة أكرا(١٤٨) المسماة بـ(كرات) الواقعة على نهر شلف القريبة من مدينة الأصنام والتي تمتاز بحصانتها فهي أشبه بقلعة حربية، حيث يعقد فيها سوق محلي كل يوم جمعة لعرض المنتجات الزراعية والمنسوجات المحلية، ومدينة مازونة الواقعة على البحر المتوسط، والتي تقع في الاقليم الغربي من الجزائر، يعقد فيها سوق محلي في يوم معلوم تعرض فيه منتجات الألبان والعسل، وهناك العديد من المدن التي تقوم بما قامت به المدن السالفة الذكر تعقد أسواق محلية فيها. ومن الملاحظ أن هذه العادة مازالت إلى يومنا هذا موجودة في أسواق مدن وقرى المغرب الكبير(١٥٠).

وبالجملة فإن الرخاء الاقتصادي انعكس على تقدم العمران في الدولة وخاصة في الحاضرة تيهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته للوفود القادمة من مدينة البصرة للمرة الثانية إلى الحاضرة تيهرت بقصد منح الإمام عبد الرحمن بن رستم كميات من الذهب يستعين بها في تدعيم الدولة الناشئة، فهالهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة ويشير إلى ذلك بقوله:«فرأوا هيئتها قد تبدلت ولاح، عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وأزينت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة...»(١٥١).

ولكن يبدو أن هذا الازدهار قد أصيب بانتكاسة بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين الفاطميين، وقضاء الفاطميين على الدولة، وفرض الضرائب الكثيرة على رعاتها، مما أدى إلى قيام الثورات ضدها التي لم تهدأ إلا عندما تخلى الفاطميون عن سياستهم التعسفية، وجنحوا إلى الاعتدال(١٥٢)فيها، إلا أن هذه الأحداث قد تركت طابعاً سلبياً على جميع الموافق الاقتصادية ومن ضمها التجارة، فقد أشار الدرجيني إلى كيفية التعامل التجاري عند أهل جربه، بأن التبايع عندهم لم يعد بالذهب، لكن بعض الفئات من

المجتمع الاباضي وخاصة قبائل هوارة البربرية بقيت تمارس عملها التجاري بعد زوال الحكم الرستمي مع البلدان السودانية مما أدى إلى انتعاشها وتحسن أحوال المعيشة بين أفرادها، ومن الجدير بالذكر أن الاباضية مازالوا إلى الآن يعتمدون على التجارة ويقومون بممارستها بشكل واسع النطاق في بلاد ميزاب جنوب الجزائر وفي جزيرة جربة بتونس(١٥٣).

أما عن العمارة، فقد كان للازدهار الاقتصادي تأثير كبير على العمارة، حيث تطاول الناس في البنيان، وقاموا بتشييد القصور والمباني الفخمة، مما دعا ابن الصغير إلى التنويه بالنهضة المعمارية أيام الإمام أفلح بقوله: «...شمخ ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبواباً من الحديد...إلى أن يقول فابتنى إبان وحموية القصرين المعروفين بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصر، يعرف به اليوم»(١٥٤).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها الحاضرة تيهرت شيء يذكر، فقد اضمحلت عقب سقوط الدولة في يد الفاطميين الذين اتخذوها ثغراً لهم أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصي، ثم جاء من بعده مصالة بن حبوس المكناسي، ولما تولى حميد بن يصلى قام بإعادة بناء القلعة والسور، وظلت مدينة تيهرت تنحدر نحو الهاوية بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تدور في ساحتها إلى أن انتهت بتوجيه الضربة القاضية عليها خلال القرن السابع للهجرة.

ويبدو أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية التي برزت بشكل واضح في بناء القصبة ذات الشكل المستطيل، والمتوج بنشز له طابع حربي، أما القصبة فكان يحيط بها من الجهة الشمالية والشرقيةسور صغير، وفي داخلها فناء واسع يحوي القسم الأكبر من القصبة، ويلتصق بجدرانها من الداخل غرف تتفاوت في اتساعها(١٥٥).

وعثر رجال الآثار الفرنسيون أثناء تنقيباتهم الأثرية على مسجد بني في العاصمة تيهرت، تميز بوجود قباب بيضاوية الشكل تلتصق بعضها ببعض، أقيمت فوق بيت الصلاة ووجد في داخل المسجد ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، كما وجد في أحد جدرانه طاقات حفر في داخلها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، أحدها مزين بضلوع بارزة كالفصوص تشبه إلى حد كبير جوفات قصر بالعراق، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي، كما عثرت البعثة على بقايا دور في مدينة سدراته الواقعة في الاقليم الشرقي من الجزائر على الحدود التونسية، كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف مدينة سامراء في العراق، قوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات(١٥٦).

وبالجملة، فقد تأثـر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية عـراقية سواء كان في انشاء المدن وتخطيطها أو في انشاء المساجد والعمائر والقصور، بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القـلاع والحصون التـي انتشرت خـارج تيهـرت ابان الصراع بين القبـائل والعنـاصر المختلفة في العصر الرستمي الأخير(١٥٧).

الخاتمة

بذل الرستميون جهوداً طيبة في نشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية في أرجاء المغرب عن طريق الحلقات التدريسية والمناظـرة العلمية بين الفرق الاسلامية، كما اهتموا بالمرافق الاقتصاديـة من زراعـة وصناعة وتجارة قصـد انعاش بلـدهم وتحسين الأحـوال المعيشية لأفـراد مجتمعهم، وشـارك الأئمـة أفراد الـرعية في الاتجار، وهـذا الأمـر لم يكن محببـاً في الاسلام لقوله عليه السلام:«إذا اتجر الراعي هلكت الرعية».

والتزم الـرستميون حكـاماً ورعيـة بتطبيق قـوانين الشريعة الاسـلامية في معـاملاتهم التجارية، فكانـوا إلى جانب ممارستهم للتجارة يقومون بنشر العقيـدة الاسلامية في بلدان الممالك السودانية—وخاصة الوثنية منها— الذين يتاجرون معها.

ورحب الأئمة الـرستميون بالوافدين على ديـار الدولة من مختلف البقـاع، ومنحوهم الأمان على أنفسهم في أجناسها ومذاهبها.

وتميز المجتمـع الرستمي بـالشجاعـة والاقدام في الحروب، والاتقان في فنـون القتال، لكنه لم يسخر طاقاته في الجهاد ضد الكفار.

ونعمت الـدولة بالأمـن صنو العـدل إلى أن سيطرت شهوة الحكـم على أحكام ودب فيهم الخلاف والنزاع إلى جـانب الفتن والحروب مع الأغالبة، ممـا أدى إلى اضعاف البنية السياسية والعسكرية للدولة التي انعكست على جميع مرافق الحياة فيها.

ففي الوقت الذي تولى أبو اليقظان الحكم سنة٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، كان الأمير زيادة الله الثالث حاكماً على دولة بني الأغلب، وكانت ظروف الدولتين متشابهة تقريباً، فالإمام أبو اليقظان محمـد قام بقتل أخيـه أبي حاتـم يوسف بـن محمد من أجـل الوصـول إلى الحكم ضارباً صفحاً عـن السخط الشديد الذي سببه هذا العمـل، كما أقدم زيادة الله الثلث على

قتل المنافسين له في الامـارة من أعمامه وقتل أخيه عبد الله الأحـول، إضافة إلى الفتن التي قامت في بـداية عهده، مما سهل الأمـر على الدولة الفاطميـة التي قامت باسقـاطها في عام واحد(١٥٨) سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، وتسرب الضعف والانحـلال إلى المجتمع الرستمي، فقل نشاط الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مما أدى إلى ظهور بعض العوائد الاجتماعية السيئة، فقـد حدث أن أحد شيوخ المذهـب عاد بعد غياب إلى منطقتـه، فوجد أهلها قد فسـدوا وتغيرت أحوالهم، وليس بينهم نـاه ينهاهم عن غيهـم، فحاول وعظهم قائلاً: «اني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مـرضية ولاناه عنها: احداها أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مـر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمـة اشمأز قلبه فإن زجرهما على الاجتماع في موضع الريبة قالا إنا متنـاكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بها ظهرت، والثـانية ان أحدكـم يطلق عبيده فلا يعـولهم ولايمونهم، ويكلفهم معـاشهم فيطلقون في أمـوال الناس على غير رضا أصحـاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحـدكم أن يكون سارقـاً وهو في محرابه جالساً، والثـالثة أنكم أظهرتم فيما بينكـم التحزب والتفرق، فطائفة منكم يقولـون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة منكم يقـولون حضرتنا وحضرتكم، ويهودينـا ويهوديكم، فلـم يجدوا جوابـاً في مجمعهم ذلـك لأنهم تواعـدوا ليجاوبـوه فلما أبطأوا استرابهم فارتحل عنهم مـن يومه»(١٥٩). لكن هذه المناكـر سرعان ماقضي عليها، بفضل جهـود الشراة من العلماء والأعيان، الـذين دأبوا منـذ قيام الدولـة وبعد زوالها إلى يومنـا هذا في المحافظة على القيـم الاسلامية وغـرسها في نفوس أبناء المجتمـع الاباضي، بتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة، في تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أصول الدين الذي يساعدهم على تقويم نفوسهم وحسن معاملتهم مع اخوانهم المسلمين.

نتائج البحث

١—توصل البحث إلى أن التعددية في الآراء كانت مطبقة في الدولة الرستمية.

٢—توصل البحث إلى عدم التمييز بين أبناء الأمة الاسلامية الواحدة، سواء كانوا من أصحاب المذهب أو من دونه مع المحافظة على حقوقهم.

٣—اشترط بالامام العلم في الأمور الشرعية، والالتزام بها، والاعلان عن هذا الالتزام عند تولي الحكم.

٤—استخدم الأئمة سياسة التوازن بين العناصر المختلفة في الدولة، وإثارة الفتنة بينها إن لزم الأمر محافظة على عروشهم.

٥—على الرغم من حرصهم على تطبيق الأحكام الاسلامية، إلا أنهم مالوا إلى المباهج الدنيوية أحياناً، فكان لديهم مواكب ذات أغراض متعددة.

٦—تعاونوا مع أعدائهم التقليديين—الأمويين في الأندلس—ضد الأغالبة الممثلين للعباسيين.

٧—ازدهر الاقتصاد في عهدهم خاصة التجارة حيث برعوا فيها، ومازالوا إلى يومنا هذا يتقنون هذا الفن من فنون الحياة إلى جانب اتقانهم للصناعات التقليدية خاصة صناعة الزرابي، التي مازالت مدينة غرداية تتميز بصناعتها لها عن بقية المدن الأخرى في ا لجزائر.

٨—شهدت البلاد في عهدهم نهضة علمية مباركة خاصة في مجال اللغة والدين، وظهر التعاون الشعبي واضحاً في هذا الميدان في بناء المؤسسات العلمية ومساعدة أبنائها من الطلبة.

٩—حرص رجال الشرطة(المحتسبة) وأعيان الأمة في إزالة المنكر، بتشجيع من الحكام والعلماء الذين كانوا باستمرار يحثون الناس على هذا العمل.

١٠—العمل باستمرار على تدريب الأبناء على القتال، ووجود ميادين للسباق والطعان، ولكن المؤسسة العسكرية كانت مرتبطة بقواعد فقه المذهب أكثر مما هي مرتبطة بالواقع المتغير.

١١—مساعدة أبناء المجتمع لبعضهم البعض مما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان الاغنياء يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص.

الهوامش

١) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ليبية، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانية مطابع دار العودة بيروت، د—ت،ص٤٧—٥٦ .
٢) حملة العلم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري و عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي. راجع، الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ت—ابراهيم طلآي، د—ت، جـ١، ص ٢٠ ، الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، ت—أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ١،ص ١١٣ .
٣) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ط—القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٢٨ .
٤) الشماخي، السير(سيرة علماء ومشايخ جبل نفوسة)، القاهرة، ط—حجرية، د—ت، ص ١٦٢ .
٥) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ط— القاهرة ١٩٦م، ص ٢١٨ .
٦) أصحابنا: يعني من الاباضية، وهي لفظة شائعة الاستعمال عند علماء الاباضية.
٧) أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سيرة الأئمة وأخبارهم، ت—اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية—الجزائر، سنة ١٩٣٩م، ص ١٢٥ ، ٨) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب،ص ٢١٨ .
٩) النفوسي، سليمان بن عبد الله الباروني، الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، ط— دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس ١٩٨٦م، جـ٢، ص ٧٠ ، ١٠ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس١٩١١م، ص ١٤٤ .
١١) يرى المسعودي أن الرستميين من الأشبان الذين اختلف في نسبهم فمنهم من يقول أنهم ملوك فارس الأولى، ومنهم من يذهب إلى أنهم من الأندلس اللذارقة—جميع لذريق—والمسعودي مع هذا الرأي. عن الرأي الأول، راجع، الدرجيني، الطبقات، جـ١، ص٢٠، وعن الثاني، راجع، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط—دار الأندلس—بيروت ط—٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١،جـ١،ص١٨٦ .
١٢) الميلي محمد، الجزائر في مِرآة التاريخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط(١) ١٩٦٥م، ص ٦٠، ديوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط(١) القاهرة ١٩٦٣م، جـ٣، ص ٣٢٠ .

١٣) النفوسي، الازهار، ص ٤٥١ ، ابن تاويت— محمد الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، مج٥، سنة ١٩٥٧م، ص١١٣ .

١٤) كتب الإمام الربيع بن حبيب رئيس أهل الدعوة الاباضية يومئذ في عُمان، رداً على الكتاب المرسل مع الرسولين من الإمام عبد الرحمن بن رستم، جاء فيه:«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، ياإخواننا قد بلغنا —ماكان من قبلكم، وفهمنا من أمر الشرط في الإمامة، الا يقضي امرأ دون جماعة معلومة، فالامامة صحيحة، والشرط باطل، ...الخ»راجع ، الشماخي، السير، ص١٢١، ١٢٢ .

١٥) النفوسي ، الازهار ، ص ١٤٣—١٤٧ ، ص ١٣٣ .

١٦) نفس المرجع، ص ١٦٣ ، هويكنز، النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء—ليبية—تونس سنة ١٩٨٠، ص ٢٤٧ .

١٧) النفوسي، الازهار، ص ١٦٢ .

١٨) نفسه، ص ٢١٤—٢١٩، وعن البيورلدي، نفسه ، ص ١٩٧ .

١٩) نفسه، ص ٢٢٣ .

٢٠) نفسه، ص ١١٤ ، ٢٦٤ .

٢١) الطبري محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك—ط— القاهرة ١٩٦٣م، جـ٦، ص ٢٧٥ .

٢٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون، وسين مهملة جبال في المغرب تقع غرب ليبية، ينبت منها الشعير الذي يعد دقيقه من ألذ الأطعمة، راجع، الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، ط—دار احياء التراث العربي— بيروت، جـ٥، ص ٢٩٦ .

٢٣) النفوسي، الازهار، ص ١٥٥ .

٢٤) نفسه، ص ٨٦ . ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة الرستميين، ط — باريس، ١٩٧٠م، ص ٥٢ .

٢٥) كان من حملته أيام الإمام أفلح العلامة شبيه الدجي ، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٨١—٢٨٢ .

٢٦) النفوسي، الازهار، ص ١٩٨ .

٢٧) ابن الصغير، السيرة، ص ٢٦—٢٧ .

---

٢٨) من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية، فالمصادر التي بين أيدينا لاتساعدنا على تحديدها بدقة، وقد أشارت مصادر متعددة لحدودها، لكن تعوزها الدقة. راجع، الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٤ ، البكري، المغرب، ص ١٤٤ .

٢٩) ابن خرذابه، عبد الله ، المسالك والممالك ، ط— ليدن— ١٨٧٢م، ص ٨٨ .

٣٠) مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت—سعد زغلول— الاسكندرية سنة ٩٥٨ ، ص ١٧٩ .

٣١) النفوسي، الازهار، ص ١٤٠ .

٣٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٠٠ .

٣٣) النفوسي، الازهار، ص ١٤٩ .

٣٤) نفسه، ص ٢٣١—٢٣٤،٢٣٧—٢٣٨ .

٣٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، العبر...، ط—بولاق، سنة ١٢٨٤م، جـ٤، ص ٤٣١ .

٣٦) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط— بيروت، ١٩٥٠م، جـ١، ص ١٥٨ .

٣٧) ابن الداية، المكافأة ، القاهرة سنة ١٩١٤م، ص ٦١، النفوسي، الازهار، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

٣٨) الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات الاباضية، جـ١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم(١٢٥٦) ح ورقة(٤١).

٣٩) يقول علماء الاباضية:«من ترك معونة إمام العدل، فمنزلته مع المسلمين خسيسة» . راجع، الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى، المصنف، نشر—وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، جـ١، ص ١٢٧ .

٤٠) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (دراسات نقدية في تفسير التاريخ) دار اقرأ ، بيروت، ط(٢)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ابن خلدون ، العبر، دار العلم ، بيروت، د—ت،جـ٤،ص ١٣٠—١٣١ .

٤٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٤٧٢ .

٤٣) يستعمل مصطلح غرب افريقية مرادفاً لمصطلح البلاد السودانية ، وذلك لأن الاسلام انتشر في هذه لفترة في حزام السافنا والساحل الصحراوي من غرب افريقية بالاضافة إلى الساحل ويشار إلى هذه المناطق في المصادر الاسلامية بالبلاد السودانية، عن التعريف، راجع، I.U.A. Musa(On THE NATURE of Islamization and Islamic reform movements in Bild assudan up to skoto Jihad Dirasat, The University of Jordan, 1979, No: 1. R 27. n. 1.

٤٤) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلي المغرب، ط(٢) القاهرة ١٩٦٤م، جـ١، ص ٥٤٨، اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن،١٩٨٢م، ص ٣٥٣ .
٤٥) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم، تاريخ افتتاح الأندلس—القاهرة، د—ت، ص٩١—٩٢، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧١، ويشهد على وجود الطائفة الأندلسية تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم (باب الأندلس) ، راجع ، اليكري، المغرب، ص٦٦، النفوسي، الازهار، ص ٢٧ .
٤٦) إلى جانب أن التعاون بين الأمويين والرستميين كان يرمي إلى خصومة الأغالبة، كذلك كان من أهدافه اضعاف الأدارسة، والحد من انتشار التشيع في الأندلس، راجع، عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٦٩ ، مكي محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية—مدريد، سنة ١٩٥٤م، ص ١٦٤ .
٤٧) النفوسي، الأزهار، ص ١٦٤ .
٤٨) نفسه ، ص ١٦٤ .
٤٩) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥١٣—٥١٤ .
٥٠) النفوسي، الازهار، ص ٢١٩—٢٢٠ .
٥١) نفسه، ص ٢٠٤ ومابعدها.
٥٣) نفسه، ص ١٦٤ .
٥٤) هم الذين باعوا أنفسهم لله، وهذا ينطبق مع قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...)سوة التوبة، آية ١١١ .
٥٥) النفوسي، الازهار، ص ٢١٠ ومابعدها.
٥٦) نفس المصدر والصفحة.
٥٧) نفسه، ص ٢٥٢ .
٥٨) نفسه، ص ٢١٠ .
٥٩) نفسه، ص ٢٣٩—٢٤٧—٢٥٣ .
٦٠) نفسه، ص ٢٤٧ .
٦١) نفسه، ص ٣١٧ .
٦٣) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٢٦ .
٦٤) نفسه، ص ٤١٦—٤١٧ .
٦٥) يشترط أن يكون فيه ستة رجال فصاعد من أهل العلم بأصول الدين، والفقه، ومن أهل الورع والصلاح. راجع، الكرمي أبو سعيد محمد بن سعيد، الاستقامة، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١١٢ .

----

٦٦) خليفات عوض محمد، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان، عمان، سنة ١٩٨٢م، ص ١١٢ .
٦٧) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ .
٦٨) نفسه، ٢٣٩، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦١ .
٦٩) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٤٢ .
٧٠) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص٣٦١—٣٦٢ .
٧١) النفوسي، الازهار، ص ٢٩٠—١٣٠ .
٧٢) نفسه، ص ٢٧٦ .
٧٣) نفس المرجع والصفحة.
٧٤) نفسه، ص ٢٢٥ .
٧٥) نفسه، ص ١٢٦ .
٧٦) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٢١٣، ٣٦٥ .
٧٧) النفوسي، الازهار، ص ١١٨ .
٧٨) كان من عـادتهم حمل السلاح، ووضع السيوف على الأكتـاف مثلما يفعل العرب الأولون، أو وضعها على الجنبات، راجع، النفوسي، الازهـار، ص ١٢٥ ، وعن الذكورية راجع، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦٥ .
٧٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٣٢ .
٨٠) نفسه، ص ٧٠ .
٨١) نفسه، ص ١٧٢ .
٨٢) نفسه، ص ٢٨٠ ومابعدها.
٨٣) نفسه، ص ٢٧٩ .
٨٤) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢٢٢ .
٨٥) نفس المرجع والصفحة.
٨٦) ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣،ص ٣٧٢ ومابعدها.
٨٧) عملاً بقول الخليفة عمر الذي قال:كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، راجع، النفوسي، ص ١٩٥ .
٨٨) النفوسي، الأزهار، ص ١٠٩ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٤٧ .
٨٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ ، أبـو زكريا، يحيى بن أبي بكـر، كتاب سير الأئمة، وأخبارهم، تحقيق، اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية ، الجزائر، سنة ١٩٧٩م، ص ٨٩ .
٩٠) النفوسي، الأزهار، ص ٣٩٤ .
٩١) نفسه ، ص ٢٨٧ .

٩٢) بهلا، احدى مدن المنطقـة الداخلية بسلطنة عُمان، تقـع بالقرب من مـدينة نزوى وإليهـا ينتسب ابـن بـركة، أبـو محمـد بـن عبد الله السليمـي البهلي، مـن علماء الاباضيـة المشهورين، أنشأ مدينـة فيها، أشهر مؤلفاته كتاب الجامع، تـوفي في القرن الرابع الهجري، راجـع، كتاب الجامـع، ت—عيسى البـاروني، طرابلـس، ١٩٧٣، جـ٢،ص أ—ب مـن المقدمة، ووردت عند ياقوت في كتابه المعجم، جـ٥، ص ٥٦٠ ، بأنها مدينة ساحلية.
٩٣) الكرمـي أبو سعيـد محمد بن محمـد، الاستقامـة، وزارة التراث القومـي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١،ص٥ .
٩٤) الشماخي، السير، القاهرة، المطبعة البارونية، ١٣٢٠هـ ص ٥٤٥ .
٩٥) نفس المرجع والصفحة.
٩٦) النفوسي، الازهار، ص ٢٨٧ ومابعدها.
٩٧) ديـوز، المغـرب الكبير، جـ٣، الميلي، محمـد مبـارك، الجزائر في مـرآة التـاريـخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط (١) سنة ١٩٦٥م، ص ٦٣ .
٩٨) ديوز ، المغرب، جـ٣ ، ص ٣٨١ .
٩٩) نفس المرجع، ص ٣٩٢ .
١٠٠) عن علماء الجبل، ديـوز، جـ٣، ص ٣٨٦ ، وعن ديوان الأشيـاخ، راجع نفسه، ص ٣٨٨ .
١٠١) من مؤلفات جبل نفـوسة، موسوعة في الشريعة الاسلامية مـوسومة بـ(ديوان العـزابة) ألفهـا عشرة من العلماء في عشرة أجـزاء، ومـازالت مخطـوطة، في خـزائن وادي ميزاب، جنوب الجزائر، عنها، راجع، ديوز ، المغرب، جـ٣، ص ٣٨٩ .
١٠٢) عن كتاب الايضاح ، راجع نفس المرجع والصفحة.
١٠٣) عن كتاب الوضع ، راجع نفس المرجع، ص ٣٩٠ .
١٠٤) المالكـي، عبد الله بـن أبي عبـد الله، ريـاض النفوس في طبقـات علماء القيروان وافريقية، جـ١، القاهرة، سنة ١٩٥١، ص ٤٠٩، الدبـاغ، عبد الرحمن بن محمـد بن عبد الله الأنصاري، معالم الايمان في معـرفة أهل القيروان، تونس، سنـة ١٣٢٠هـ جـ٢، ص ١٩٢ .
١٠٥) لما قبض على أبي نوح وجـيء به إلى المعز مكبلاً بالأصفاد قـال المعز:«إن القيود دخلت في رجلك بـالعلم ولا تخرج إلا با لعلم». قـال أبو نوح:«عسى الله أن يجعـل ذلك كفارة لذنوبي، فغضب المعز». وقال:« أفنحن مسيئـون فيك؟». قال أبو نوح:« قلت ليس في ذلك مـايدل على اسـائتك، ألا تـرى أن الله يبتلي عباده، فيصبروا فيـؤجروا، وليـس في ذلك مايثبت الاساءة لله، فزال غضبه فطلبته العفو»، فعفى... وقربه.

وفي احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز:«ماالدليل أن لهذه الصنعة صانعاً؟ أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية. فقال أبو نوح:« فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب». وتأدب أبو نوح وقال:«جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع، ولا صنعة بغير صانع، فاعجب المعز بلباقته». راجع ، الشماخي، ص ٣٥٢، اسماعيل محمود ، الخوارج، ص ٣٣٤ .

١٠٦) النفوسي، الازهار، ص ١١٥ .

١٠٧) نفسه، ص ١٠٢ ومابعدها ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٩٩ .

١٠٨) ديوز، المغرب، ...، ص ٤٠٣ .

١٠٩) الشماخي، السير، ط—البارونية، ص ٤٠٢ .

١١٠) ديوز، المغرب...، جـ٣، ص ٤١٣ .

١١١) نفسه ، ص ٤١٥ .

١١٢) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٦ ، الميلي، الجزائر...، ص ٦٣—٦٤، بونار— رابح، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٢٠ ومابعدها.

١١٣) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥١—٥٢، التقى الباحث أثناء إقامته في الجزائر مع أحد علماء الاباضية المعاصرين، فأكد له وجود جماعة منهم في غانة في أيامنا هذه، وأكد هذا القول المستشرق ماسكراي الذي تحدث إليه الشيخ عبد الله أحمد أحد مشائخ الاباضية وأكد له هذه الحقيقة، راجع،

Masqueray E: CHRONIQUES, Abou zakaria, Alger, 1978, p:279

١١٤) النفوسي، الازهار، ص ١٥٣ .

١١٥) اليعقوبي: أحمد بن أبي اليعقوب بن واضح، البلدان، ط— ليدن، ١٩٨٢، ص ٣٥٩ ، محمود اسماعيل، الخوارج...، ص ٢١٣—٢١٨ .

١١٦) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المعروف بـ(نزهة المشتاق) ، ط— ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨٨ .

١١٧) نفسه، ص ١٢٣ ، وعن النجب، مازال أهل المغرب يسمون هذا النوع من الإبل بالمهري إلى يومنا هذا، مشاهدات الباحث، كذلك أورد هذه التسمية، النفوسي في كتابه الازهار، ص ١٠٩ .

١١٨) تسمى بالبربرية آزقي، وهناك اقليم في عمان يحمل نفس الاسم مع شيء من الحريف يسمى بـ(أزكي) يمتاز بكثرة الأفلاج، عن آزقي، راجع، النفوسي، الأزهار، ص ٥٨ ، وعن آزكي راجع، ولكنسون، الافلاج ووسائل الري في عمان، تعريب—محمد أمين عبد الله، وزارة التراث ، سلطنة عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٠ .

١١٩) النفوسي، الازهار، ص ٥٨ .
١٢٠) الجنحاني، حبيب، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة بيروت، ط(١). ١٩٨٠م، ص ١٠٨—١١٠٩٤ .
١٢٢) نفس المرجع والصفحة.
١٢٣) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس ١٩١١م، ص ٦٨ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة ١٩٦٦م، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها .
١٢٤) ديوز، المغرب..، جـ٣، ص٤٨٠ .
١٢٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٦) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، ١٩٠٧م، ص ١٢—١٣، النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٧) الجنحاني، حبيب، دراسات مغربية، ص ١٠٨—٠٩ .
١٢٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢٨ .
١٢٩) نفسه ص ١٤٥، النفوسي، الازهار، ص ١٤ ومابعدها.
١٣٠) النفوسي، الازهار، ص ٣١، ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣، ص ١٦٧ .
١٣١) نفس المرجع، ص ٢٧—٢٨، عن مرسى فروخ، راجع، البكري، المغرب... ، ص ٨١، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٠ .
١٣٢) النفوسي، الازهار، ص ٧ .
١٣٣) اسماعيل محمود، الخوارج..، ص ٢١٠ .
١٣٤) ابن حوقل، ابو القاسم، المسالك والممالك ، ط— ليدن، ١٨٧٣م، ص ٨٦ .
١٣٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٩ .
١٣٦) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
١٣٧) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط—ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨—٩، ١١—١٢،٣٥ .
١٣٨) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص من الآندلس من كتاب ترجيح الأخبار وتفريغ الآثار، والمسالك إلى جميع الممالك ، مدريد سنة ١٩٦٥م، ص ١٩ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها، أما بما يخص المنسوجات الصوفية، فمازالت النساء في غرداية ببلاد الميزاب يزاولن هذه الصنعة إلى يومنا هذا ، وتعد زرابي غرداية من أجود الزرابي في المغرب كله. مشاهدات الباحث.
١٣٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

---

١٤٠) نفسه، ص ١٣٧ .

١٤١) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

١٤٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥٠ .

١٤٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٣٢ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٣٤٨—٣٤٩ .

Lewickit: Etudes Ibadites Nord- Africaines Warszaw, 1955: p, 71 .

١٤٥) الادريسي،نزهة المشتاق ، ص ٨—٩ .

١٤٦) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب الوضع في الفقه الاسلامي، ط— القاهرة سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، جـ١، ص ١٩٠ .

١٤٧) ابن الصغير، سيرة الأئمة، بايس، ١٩٥٨م، ص ٢٧ .

١٤٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨م، ص ٢٠٢ .

١٤٩) النفوسي، الازهار، ص ٨١ .

١٥٠) نفسه، ص ٦١ .

١٥١) مشاهدات الباحث.

١٥٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، سنة١٩٥٨م، ص ١٣ .

١٥٣) الشماخي، السير، ط— حجرية، د—ت، القاهرة، ص ٣٢٠—٣٢٣ .

١٥٤) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .

١٥٥) النفوسي، الازهار، ص ١٨١ .

١٥٦) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٩ ومابعدها.

١٥٧) نفس المرجع والصفحة.

١٥٨) Marçais, G: La BERBE'RIE Musulmane du Moyen AGE, Paris, 1954, p: 166 .

١٥٩) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ ١، ص ١٨٣ ، النفوسي ، الازهار، ص ١٩١ .

١٦٠) الجنحاني، دراسات مغربية، ص ١٠٨ .